

(١٥٨٣)

التوفيق والخذلان

أسباب ومواعظ

من مصنفات ابن تيمية وابن القيم

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

WWW.NSOOOS.COM

"ص –٤٥– رأس الصراط كتاب الله؛ والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن " فقد بين في هذا الحديث العظيم – الذي من عرفه انتفع به انتفاعا بالغا إن ساعده **التوفيق**؛ واستغنى به عن علوم كثيرة – أن في قلب كل مؤمن واعظا والوعظ هو الأمر والنهي؛ والترغيب والترهيب . وإذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم؛ قال حذيفة بن اليمان : إن في قلب المؤمن سراجا يزهر . وفي الحديث الصحيح : " إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ " فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله؛ فإن الدجال أكذب خلق الله مع أن الله يجري على يديه أمورا هائلة ومخاريق مزلزلة حتى إن من رآه افتتن به فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها . وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطلها وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله : {نور على نور } [النور : ٣٥] قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا." (١)

"ص –٦٥٨– ما تقول السادة العلماء :

في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد وزي غير زيهم المألوف وذلك أن السلطان ألزمهم بتغيير عمائمهم وأن تكون خلاف عمائم المسلمين فحصل بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاع وآذوهم غاية الأذى وطمع بذلك في إهانتهم والتعدي عليهم .

فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التمييز بعلامة يعرفون بها ؟ وهل ذلك مخالف للشرع أم لا ؟ .

قال ابن القيم : فأجابهم من منع **التوفيق** وصد عن الطريق بجواز ذلك وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه . قال شيخنا : فجاءتني الفتوى . فقلت : لا تجوز إعادتهم ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين . فذهبوا ثم غيروا الفتيا ثم جاءوا بها في قالب آخر فقلت : لا تجوز إعادتهم . فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر فقلت : هي المسألة المعينة وإن خرجت في عدة قوالب . قال ابن القيم : ثم ذهب شيخ

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٥/

الإسلام إلى السلطان وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون فأطبق القوم على إبقائهم . ولله الحمد والمنة." (١)

"ص -٤٠٩- عظيمة، ونصرة للإسلام جسيمة .

قال ابن عباس : ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو .

ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم بقوة الإيمان، وللعدو من **الخذلان**، ما ينصر الله به المؤمنين، ويذل به الكفار والمنافقين .

والله هو المسؤول أن يتم نعمته على سلطان الإسلام خاصة، وعلى عباده المؤمنين عامة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .." (٢)

"ص -٤٧١- عليه ويخذلونه؛ إذ هم أسرع الناس إلى فتنة، وأعجزهم فيها عن ثبات، وأن أباه كان أفضل منه وأطوع في الناس، وكان جمهور الناس معه . ومع هذا فكان فيهم من الخلاف عليه **والخذلان** له ما الله به عليم . حتى صار يطلب السلم، بعد أن كان يدعو إلى الحرب . وما مات إلا وقد كرههم كراهة الله بها عليم، ودعا عليهم وبرم بهم .

فلما ذهب الحسين رضي الله عنه وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إليهم، واتبعه طائفة . ثم لما قدم عبيد الله بن زياد الكوفة، قاموا مع ابن زياد، وقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة وغيرهما . فبلغ الحسين ذلك، فأراد الرجوع، فوافته سرية عمر بن سعد، وطلبوا منه أن يستأسر لهم فأبي، وطلب أن يردوه إلى يزيد ابن عمه، حتى يضع يده في يده، أو يرجع من حيث جاء، أو يلحق ببعض الثغور، فامتنعوا من إجابته إلى ذلك بغيا وظلما وعدوانا . وكان من أشدهم تحريضا عليه شمر بن ذي الجوشن . ولحق بالحسين طائفة منهم . ووقع القتل حتى أكرم الله الحسين ومن أكرمه من أهل بيته بالشهادة رضي الله عنهم وأرضاهم . وأهان بالبغي والظلم والعدوان من أهانه بما انتهكه من حرمتهم، واستحله من دمائهم، {ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء } [الحج : ١٨] . وكان ذلك من نعمة الله علي الحسين، وكرامته له لينال منازل الشهداء، حيث لم يجعل له في أول الإسلام من الابتلاء." (٣)

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٨

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /١٣

(٣) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، /٢٢

"ص -٣٤٢- وبرضا الله ورسوله، كقوله : {والله ورسوله أحق أن يرضوه } [التوبة : ٦٢] وتحكيم الله ورسوله، كقوله : {وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم } [النور : ٤٨] ، وقوله : {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول } [النساء : ٦١] ، وأمر عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، فقال : {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول } [النساء : ٥٩] ، وجعل المغانم لله والرسول،فقال : {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول } [الأنفال : ١] ونظائر هذا متعددة .

فتعليق الأمور من المحبة والبغضة، والموالاة والمعاداة، والنصرة **والخذلان**، والموافقة والمخالفة، والرضا والغضب، والعطاء والمنع، بما يخالف هذه الأصول المنزلة من عند الله مما هو [أخص منها] أو [أعم منها] أو [أعم من وجه وأخص من وجه] .

فالأعم : ما عليه المتفلسفة، ومن اتبعهم من ضلال المتكلمة والمتصوفة والممالك المؤسسة على ذلك، كملك الترك وغيرهم، في تسويغ التدين بغير ما جاء به محمد رسول الله . وإن عظم محمدا وجعل دينه أفضل الأديان، وكذلك من سوغ النجاة والسعادة بعد مبعثه بغير شريعته .

والأعم من وجه الأخص من وجه : مثل الأنساب، والقبائل، والأجناس العربية، والفارسية، والرومية، والتركية أو الأمصار والبلاد .." (١)

"ص -١١٩- كثرة، والصادر عنه لا يكون إلا واحدا . ولهم في الصدور اختلاف كثير ليس هذا موضعه .

قيل لهم : أما إثباتكم أن في السماء أرواحا، فهذا يشبه ما في القرآن وغيره من كتب الله، ولكن ليست هي [الملائكة] ، كما يقول الذين يزعمون منكم أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول، وما أنزل من قبله، ويقولون : ما أردنا إلا الإحسان **والتوفيق** بين الشريعة والفلسفة، فإنهم قالوا : العقول والنفوس عند الفلاسفة هي الملائكة عند الأنبياء، وليس كذلك، لكن تشبهها من بعض الوجوه .

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله، كما قال تعالى : {جاعل الملائكة رسلا } [فاطر : ١] ، وكما قال : {والمرسلات عرفا } [المرسلات : ١] ، فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض، كما قال تعالى : {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون }

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣/٤٢

[الأنعام : ٦١] ، وكما قال : {بلى ورسلنا لديهم يكتبون } [الزخرف : ٨٠] ، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة، فإنه قال : {ينزل الملآئكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده } [النحل : ٢] ، وقال تعالى : {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم } [الشورى : ٥١] ، وقال تعالى : {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس } [الحج : ٧٥] .

وملائكة الله لا يحصى عددهم إلا الله، كما قال تعالى." (١)

"ص -٤٤٧- القبلة، بمعنى : أنهم يستقبلون الركن الشامي ويستدبرون القطب الشامي من غير انحراف إلى ذات اليمين؛ كأهل العراق، ولا إلى ذات الشمال؛ كأهل الشام .

قالوا : فإذا دلت هذه النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التي لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هي بالشام، كان هذا معارضا لقوله : (تقتل عمارا الفئة الباغية) ، ولقوله : (تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) ، وهذا من حجة من يجعل الجميع سواء والجميع مصيبين، أو يمسك عن الترجيح وهذا أقرب . وقد احتج به من هؤلاء على أولئك، لكن هذا القول مرغوب عنه وهو من أقوال النواصب، فهو مقابل بأقوال الشيعة والروافض، هؤلاء أهل الأهواء وإنما نتكلم هنا مع أهل العلم والعدل .

ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها والتأليف، فيقال : أما قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال أهل الغرب ظاهرين) ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهكذا وقع وهذا هو الأمر، فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين .

وأما قوله عليه السلام : (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله) ومن هو ظاهر، فلا يقتضي ألا يكون فيهم من فيه بغي ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا .

وأما قوله : (تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) فهذا دليل على أن عليا." (٢)

"ص -١٨- { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} [النساء : ٦٠] { وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا} [النساء : ٦١

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٢١/٤٧

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣٧/٦٦

] { فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا} [النساء : ٦٢] . فإن هؤلاء إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول – والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته – أعرضوا عن ذلك وهم يقولون : إنا قصدنا الإحسان علما وعملا بهذه الطريق التي سلكناها **والتوفيق** بين الدلائل العقلية والنقلية . ثم عامة هذه الشبهات التي يسمونها دلائل : إنما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين أو الصابئين أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان أو عمن قال كقولهم؛ لتشابه قلوبهم . قال الله تعالى : { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء : ٦٥] {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة : من الآية٢١٣] الآية . ولازم هذه المقالة : أن لا يكون الكتاب هدى للناس ولا بيانا ولا شفاء." (١)

"ص –٨٢– الخوف والرجاء، وكل من ادعى [الأمن] فهو جاهل بالله، وبما أخبر به عن نفسه : { فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}

[الأعراف : ٩٩] ، وقد أفردت كشف عورات من قال بذلك .

ونعتقد أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه، فيبقى على أحكام القوة والاستطاعة؛ إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية بإسقاط العبودية، والخروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالة، إلا من اعتراه علة، أو رأفة، فصار معتوها أو مجنونا أو مبرسما، وقد اختلط عقله أو لحقه غشية يرتفع عنه بها أحكام العقل، وذهب عنه التمييز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة .

ومن زعم الإشراف على الخلق، يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله ـ بغير الوحي المنزل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فهو خارج عن الملة، ومن ادعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم، وعلى ماذا يموتون عليه ويختم لهم ـ بغير الوحي من قول الله وقول رسوله ـ فقد باء بغضب من الله .

و [الفراسة] حق على أصول ما ذكرناه، وليس ذلك مما رسمناه في شيء، ومن زعم أن صفاته تعالى

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٦/٧١

بصفاته . ويشير في ذلك إلى غير آية العظمة والتوفيق والهداية . وأشار إلى صفاته عز وجل القديمة، فهو حلولي قائل باللاهوتية، والالتحام، وذلك كفر لا محالة .." (١)

"ص -٤٠٧- والنزول منا يكون بمعنيين :

أحدهما : الانتقال من مكان إلى مكان، كنزولك من الجبل إلى الحضيض، ومن السطح إلى الدار .

والمعنى الآخر : إقبالك إلى الشيء بالإرادة والنية . كذلك الهبوط والارتفاع والبلوغ والمصير، وأشباه هذا من الكلام .

ومثال ذلك : إن سألك سائل عن محل قوم من الأعراب وهو لا يريد المصير إليهم فتقول له : إذا صرت إلى جبل كذا فانزل منه وخذ يمينا، وإذا صرت إلى وادي كذا فاهبط فيه ثم خذ شمالا، وإذا سرت إلى أرض كذا فاعل هضبة هناك حتى تشرف عليهم، وأنت لا تريد في شيء مما تقوله افعله ببدنك، إنما تريد افعله بنيتك وقصدك .

وقد يقول القائل : بلغت إلى الأحزاب تشتمهم، وصرت إلى الخلفاء تطعن عليهم، وجئت إلى العلم تزهد فيه، ونزلت عن معالي الأخلاق إلى الدناءة، ليس يراد في شيء من هذا انتقال الجسم، وإنما يراد به القصد إلى الشيء بالإرادة والعزم والنية، وكذلك قوله : { إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل : ١٢٨] لا يراد به أنه معهم بالحلول؛ ولكن بالنصر والتوفيق والحياطة .

وكذلك قوله عز وجل : " من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " .." (٢)

"ص -٥٠٦- الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

وبعد هذا : فأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويرزقنا اتباع هدى نبيه صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا، ويجمع على الهدى شملنا، ويقرن بالتوفيق أمرنا، ويجعل قلوبنا على قلب خيارنا، ويعصمنا من الشيطان، ويعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد كتبت هذا الكتاب وتحريت فيه الرشد، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، ومع

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٨٦/٧١

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٩٠/٨٠

هذا فلم أحط علما بحقيقة ما بينكم ولا بكيفية أموركم، وإنما كتبت على حسب ما فهمت من كلام من حدثني، والمقصود الأكبر إنما هو إصلاح ذات بينكم وتأليف قلوبكم .

وأما استيعاب القول في هذه المسألة وغيرها وبيان حقيقة الأمر فيها، فربما أقول أو أكتب في وقت آخر إن رأيت الحاجة ماسة إليه، فإني في هذا الوقت رأيت الحاجة إلى انتظام أمركم أوكد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وحسبنا الله ونعم الوكيل .." (١)

"ص -٣٦٢- كل مسلم مؤمنا . قال : فهذا تحقيق واف **بالتوفيق** بين متفرقات النصوص الواردة في الإيمان والإسلام، التي طالما غلط فيها الخائضون، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم .

فيقال : هذا الذي ذكره رحمه الله فيه من الموافقة لما قد بين من أقوال الأئمة، وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون : كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، وقوله : إن الحديث ذكر فيه أصل الإيمان وأصل الإسلام، قد يورد عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن الإيمان والإسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود، فيكون ما ذكره مطابقا لهما لا لأصلهما فقط، فالإيمان هو الإيمان بما ذكره باطنا وظاهرا، لكن ما ذكره من الإيمان تضمن الإسلام، كما أن الإحسان تضمن الإيمان .

وقول القائل : أصل الاستسلام هو الإسلام الظاهر، فالإسلام هو الاستسلام لله والانقياد له ظاهرا وباطنا، فهذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ومن أسلم بظاهره دون باطنه فهو منافق يقبل ظاهره، فإنه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس، وأيضا فإذا كان الإسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمنا، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور، ولكن لابد في الإسلام من تصديق يحصل به أصل الإيمان، وإلا لم يثب عليه، فيكون." (٢)

"ص -٢٩٧- فصل

لأنه ما وجد في الأمر ولو وجد بالفكر وهذا مثل مالم ترد الشريعة به كأمر الأطفال ومن لا عقل له والأعمى

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٣/١٠٣

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٤٠٧/١١

البصر، والفقير النفقة، والزمن أن يسير إلى مكة، فكل ذلك ما جاءت به الشريعة، ولو جاءت به لزم الإيمان به والتصديق فلا يقيد الكلام فيه . قال : وذهبت طائفة من أصحابنا إلى إطلاق الاسم من جواز تكليف ما لا يطاق من زمن وأعمى وغيرهم، وهو مذهب جهم وبرغوث .

الوجه الثاني : سلامة الآلة، لكن عدم الطاقة لعدم **التوفيق** والقبول، وذلك يجوز وجها واحدا في معنى هذا أنه يجوز التكليف لمن قدر علم الله فيه أنه لا يفعله، وأبي ذلك المعتزلة والدليل عليه قوله تعالى لإبليس : {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي } [ص : ٧٥] ، وقوله : {ألا تسجد إذ أمرتك } الآيات [الأعراف : ١٢] ، فأمر وقد سبق من علمه أنه لا يقع منه فعله، فكان الأمر متوجها إلي ما قد سبق من علم الله أنه لا يطيقه .

القول الثاني : منقول عن أبى الحسن أيضا، وزعم أبو المعالي الجويني أنه الذي مال إليه أكثر أجوبة أبي الحسن، وأنه الذي ارتضاه كثير من أصحابه." (١)

"ص -٣٢- تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها فى في امرأتك " ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله، فإن ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل . وإن كان لا ينافى القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي .

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له، ولا تصلح إلا لمقدورها، كما ذكرها الله تعالى في قوله : {ما كانوا يستطيعون السمع } [هود : ٢٠] ، وفي قوله : {وكانوا لا يستطيعون سمعا } [الكهف : ١٠١] . وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن كما في قوله تعالى : {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } [آل عمران : ٩٧] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : "صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب " .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى أربعة أقسام :

قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٩/١٣٢

حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز **والخذلان**؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .." (١)

"ص -٢٣٠- الله تعالى : {اتقوا الله وقولوا قولا سديدا } [الأحزاب : ٧٠] ، قالوا : قصدا حقا، وعن ابن عباس : صوابا . وعن قتادة ومقاتل : عدلا . وعن السدي : مستقيما . وكل هذه الأقوال صحيح، فإن القول السديد هو المطابق الموافق، فإن كان خبرا، كان صدقا مطابقا لمخبره، لا يزيد ولا ينقص، وإن كان أمرا، كان أمرا بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص؛ ولهذا يفسرون السداد بالقصد، والقصد بالعدل .

قال الجوهري : التسديد : **التوفيق** للسداد وهو الصواب والقصد في القول والعمل . ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد والقصد . والمسدد : المقوم، وسدد رمحه . وأمر سديد وأسد، أي : قاصد . وقد استد الشيء، استقام . قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وقال الأصمعي : اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء، وتعبيرهم عن السد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معني الجمع والقوة . والقصد : العدل كما أنه السداد والصواب، وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص، وهذا هو الجامع المطابق، ومنه قوله تعالى : {وعلى الله قصد السبيل } [النحل : ٩] أي : السبيل القصد، وهو السبيل العدل؛ أي : إليه تنتهي السبيل العادلة، كما قال تعالى : {إن علينا للهدى } [الليل : ١٢] . أي : الهدي إلينا .." (٢)

"ص -٢٠٠- قال الحسن : معناه صراط إلى مستقيم وقال مجاهد : الحق يرجع إلي، وعليه طريقه لا يعرج على شيء

وقال الأخفش : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم

وقال الكسائي : هذا على التهديد والوعيد، كما يقول الرجل لمن يخاصمه : طريقك علي، أي : لا تفلت مني، كما قال تعالى: { إن ربك لبالمرصاد }

وقيل : معناه : على استقامته بالبيان والبرهان **والتوفيق** والهداية

فذكروا الأقوال الثلاثة، وذكروا قول الأخفش : على الدلالة على الصراط المستقيم وهو يشبه القول الأخير،

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣٤/١٥٥

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٣١/٢٣٨

لكن بينهما فرق فإن ذاك يقول : على استقامته بإقامة الأدلة فمن سلكه كان على صراط مستقيم والآخر يقول : على أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج ففي كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصب الأدلة، لكن هذا جعل الدلالة عليه، وهذا جعل عليه استقامته أي بيان استقامته وهما متلازمان؛ ولهذا والله أعلم لم يجعله أبو الفرج قولا رابعا

وذكروا القراءة الأخري عن يعقوب وغيره : أي : رفيع قال البغوي : وعبر بعضهم عنه : " رفيع أن ينال، مستقيم أن يمال "." (١)

"ص -١٢٦- {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما } [النساء : ١٦٥] ، وقال تعالى : {إن هي {أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون } إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان } [النجم : ٢٣] ، وقال : [الروم : ٣٥] ، ونظائره متعددة .

فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء؛ ليكونوا مستمسكين بالملة والدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان بعد الاجتهاد التام هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج للأنبياء، وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك له، وهو الدين الأصلى الجامع، كما يثاب الأنبياء على عبادتهم الله وحده لا شريك له، ويثابون على طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا به ا من شرعة رسوله ومنهاجه، كما يثاب كل نبي على طاعة الله في شرعه ومنهاجه .

ويتنوع شرعهم ومناهجهم، مثل أن يبلغ أحدهم الأحاديث بألفاظ غير الألفاظ التي بلغت الآخر، وتفسر له بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظه لفظ التفسير الآخر، ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها بنوع من الترتيب **والتوفيق**، ليس هو النوع." (٢)

"ص -١٧٢- والثاني : الهدي بمعني دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين، سواء آمنوا أو كفروا، كما قال تعالى : { وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي على الهدي } [فصلت : ١٧] ، وقال تعالى : { إنما أنت

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٤/٢٤٥

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٥/٢٤٧

منذر ولكل قوم هاد } [الرعد : ٧] ، وقال تعالى : { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } [الشوري : ٥٢] ، فهذا مع قوله : { إنك لا تهدي من أحببت } [القصص : ٦٥] ، يبين أن الهدي الذي أثبته هو البيان والدعاء، والأمر والنهي، والتعليم وما يتبع ذلك، ليس هو الهدي الذي نفاه، وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله .

والقسم الثالث : الهدي الذي هو جعل الهدي في القلوب . وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد، وبعضهم يقول : هو خلق القدرة على الإيمان؛ كالتوفيق عندهم، ونحو ذلك، وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل . فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدي، ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة .

وأما من قال : إنهما استطاعتان :

إحداهما : قبل الفعل، وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف، كما قال تعالى : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } [آل عمران : ٩٧] ،". (١)

"ص -٢٠٨- قال الله تعالى : { فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة } [النساء : ٧٨، ٧٩] ، أي : من نعمة { فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك } [النساء : ٧٩] ، أي : فبذنبك . كما قال : { وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم } [الشوري : ٣٠] ، وقال : { وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم } [الروم : ٣٦] .

وأما القسم الثالث في هذا الباب : فهم قوم لبسوا الحق بالباطل، وهم بين أهل الإيمان أهل الخير وبين شرار الناس وهم الخائضون في القدر بالباطل، فقوم يرون أنهم هم الذين يهدون أنفسهم ويضلونها، ويوجبون لها فعل الطاعة وفعل المعصية، بغير إعانة منه وتوفيق للطاعة، ولا خذلان منه في المعصية . وقوم لا يثبتون لأنفسهم فعلا ولا قدرة ولا أمرا .

ثم من هؤلاء من ينحل عن الأمر والنهي فيكون أكفر الخلق، وهم في احتجاجهم بالقدر متناقضون؛ إذ لا بد من فعل يحبونه وفعل يبغضونه، ولابد لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين، فإذا

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٣٩/٢٥٥

جعلوا الحسنات والسيئات سواسية لم يمكنهم أن يذموا أحدا، ولا يدفعوا ظالما، ولا يقابلوا مسيئا، وأن يبيحوا للناس من أنفسهم كل ما يشتهيه مشته، ونحو ذلك من الأمور التي لا يعيش." (١)

"

وقالوا هي الخط أيضا إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط وذلك لأن الأثارة من الأثر فالعلم الذي يقوله من يقبل قوله يؤثر بالإسناد ويقيد ذلك بالخط فيكون ذلك كله من آثاره

وقد قال تعالى في نعت المنافقين { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا } سورة النساء ٦٠ ٦٣

وفي هذه الآيات أنواع من العبر الدالة على ضلال من تحاكم إلى غير الكتاب والسنة وعلى نفاقه وإن زعم أنه يريد **التوفيق** بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين وأهل الكتاب وغير ذلك من أنواع الإعتبار

". (٢)

"

والأمدى يقول إن وجوب الوجود بالاشتراك اللفظي وقاله قبله الشهرستاني والرازي مع تناقضهما في ذلك وقولهما في موضع آخر خلاف ذلك

والمقصود هنا أن ما ذكروه في إبطال تعدد واجب الوجود وإفساد طرق ابن سينا وأتباعه في ذلك يبين بطلان ما أحال عليه في قوله لا يجوز أن تكون الأجزاء كلها واجبة على ما سيأتي تحقيقة في مسألة التوحيد

ومن أعجب **خذلان** المخالفين للسنة وتضعيفهم للحجة إذا نصر بها حق وتقويتها إذا نصر بها باطل أن حجة الفلاسفة على التوحيد قد أبطلها لاما استدلوا بها على أن الإله واحد والمدلول حق لا ريب فيه

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٧٧/٢٥٥

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٥٨/١

وإن قدر ضعف الحجة ثم إنه يحتج بها بعينا على نفي لوازم علو الله على خلقه بل ما يستلزم تعطيل ذاته فيجعلها حجة فيما يستلزم التعطيل ويبطلها إذا احتج بها على التوحيد

وأيضا فما ذكره في إبطال هذه الحجة يبطل الوجه الأول أيضا فإنه إذا لم يمتنع واجبان بأنفسهما فأن لا يمتنع جزءان كل منهما واجب بنفسه بطريق الأولى والأحرى

واعلم أن الوجهين اللذين أبطلا بهما الحجة أحدهما منع كون الوجوب أمرا ثبوتيا والثاني المعارضة أما المعارضة فواردة على هؤلاء الفلاسفة لا مندوحة لهم عنها ومعارضة الشهرستاني والرازي وأظن ". (١)

"فيه لاستحالة كتمانه على من حضره أو طي شيء منه على من شهده إني خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي ولعمري إن فيهما الشفاء من كل أمر مشكل والبرء من كل داء معضل وإن في حراستهما من الباطل على ما تقدم ذكرنا له آية لمن نصح نفسه ودلالة لمن كان الحق قصده

"الفلك يتحرك للتشبه به وهذا أفسد من ذاك من طرق متعددة وليس هذا موضع بسط ذلك

وإنما المقصود هنا التنبيه على أن قوله تعالى { ولم يعي بخلقهن } سورة الأحقاف ٣٣ فيه تنبيه على ثبوت الأمور التي توجب وصف خالق السماوات والأرض بصفات الكمال وبإحداث الأفعال وذلك هو الذي يستلزم قدرته على إحياء الموتى وبسط ذلك يطول

ومما يبين خذلان الله لأهل البدع المخالفين للكتاب والسنة أن هذين الأصلين أمر الولادة وأمر المعاد هما من أعظم أصول أهل الضلال كالدهرية من الفلاسفة وغيرهم الذين يقولون إن العقول تولدت عن الله وينكرون إحياء الله الموتى

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وهذا في الصحيح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٢٥٢/٤

". (١)

"والمناقضة والاستخفاف بالحقائق بأقبح من قول هؤلاء إنه لا يصح الإيمان إلا بالكفر ولا يصح التصديق إلا بالجحد ولا يوصل إلى رضا الله عز وجل إلا بالشك فيه وأن من اعتقد موقنا بقلبه ولسانه أن الله ربه لا إله إلا هو وأن محمدا رسول الله وأن دين الإسلام دين الله الذي لا دين غيره فإنه كافر مشرك نعوذ بالله من **الخذلان** فوالله لولا **خذلان** الله الذي هو غالب على أمره ما انطلق لسان ذي مسكة بهذه العظيمة

قلت هذا القول هو في الأصل من أقوال المعتزلة وقد أوجب أبو هاشم وطائفة معه الشك وجعلوه أول الواجبات ومن لم يوجبه من الموافقين على أصل القول قال إنه لا بد من حصوله وإن لم يؤمر به

وهذا بناء على أصلين أحدهما أن أول الواجبات النظر المفضي إلى العلم والثاني أن النظر يضاد العلم فإن الناظر طالب للعلم فلا يكون في حال النظر عالما

وكلا الأصلين باطل أما الأول فقد عرف الكلام فيه وأما الثاني فإن النظر نوعان أحدهما النظر المتضمن طلب الدليل

". (٢)

"فنصيحتي لاخواني من المؤمنين الموحدين أن لا يقرع أبكار قلوبهم كلام المتكلمين ولا تصغي مسامعهم إلى خرافات المتصوفين بل الشغل بالمعايش أولى من بطالة المتصوفة والوقوف مع الظواهر أولى من توغل المنتحلة للكلام وقد خبرت طريقة الفريقين غاية هؤلاء الشك وغاية هؤلاء الشطح والمتكلمون عندي خير من المتصوفة لأن المتكلمين مرادهم مع التحقيق مزيد الشكوك في بعض الأشخاص ومؤدي المتصوفة إلى توهم الإشكال والتشبيه هو الغاية في الإبطال بل هو حقيقة المحال مما يسقط المشايخ من عيني وإن نبلوا في أعين الناس أقدارا وأنسابا وعلوما وأخطارا إلا قول القائل منهم إذا خوطب بمقتضى الشرع عادتي كذا وكذا يشير إلى طريقة قد قننها لنفسه تخرج عن سمت الشرع فذاك مختلق طريقة وكل مختلق مبتدع ولو كان في ترك النوافل لأن الاستمرار على ترك السنن **خذلان** قال أحمد رضي الله عنه وقد سئل

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٣٨٦/٧

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٤١٩/٧

". (١)

"

قال أبو محمد في كتابه هذا الذي صنفه في اصول السنة والتوحيد قال وكان إجماع السلف والخلف وائمة الدين وفقهاء المسلمين من شرق وغرب وسهل وجبل وسائر اقاليم الإسلام من مغرب ومصر وشام وعراق وحجاز ويمن وبحر وخراسان مجتمعين على أن عقيدة السنة اربع عشرة خصلة سبعة متعلقة بالشهادة وهي مما يدان بها في الدنيا وسبعه متعلقة بالغيب وهي مما يؤمن بها من احكام الاخرة

فالتي في دار الدنيا القول مع الاعتقاد بأن الإيمان قول وعمل ونية والايمان بالقدر خيره وشره وان القرآن غير مخلوق وتخيير الاربعة على الترتيب واثبات الامامة وترك الخروج على أحد منهم والصلاة على من مات من اهل القبلة وترك المراء والجدل

والمتعلقة بالاخرة الإيمان باحكام البرزخ والايات التي بين يدي الساعة والبعث بعد الموت ورؤية الله تعالى والايمان بالحوض والشفاعة والصراط والميزان وخلود الدارين فمن خالف شيئا من هذا فقد خالف اعتقاد السنة والجماعة وهذا مما لا شبهة فيه بين أصحاب الحديث والفقهاء والعلماء من سائر الاقاليم وسنتكلم على كل مسألة بذاتها ونقيم الدليل على ذلك من كتاب وسنة ونظر وبه **التوفيق** والمعونة وهو حسبنا ونعم الوكيل لا غناء بنا عنه طرفة عين ولا اقل من

". (٢)

"الكلمة وتمام الحديث فطفق لا ينطق فكحله بنور العزة فقال أنت الله الذي لا إله إلا أنت فلم يعرف العقل الله إلا بالله

وإذا كان الله معروفا من طريق التوحيد بالعقل فما بال قريش مع كونها ذوي عقول يقول الله عنهم إخبارا { أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب } سورة ص ٥ فإن كان لا عقل لها فلا حجة عليها وإن كانت ذوي عقول فما أغنت عنهم عقولهم

وقال سبحانه { وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم } سورة الأحقاف ٢٦ الآية وأخبر عنهم أنهم يقولون في النار { لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٦٦/٨

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٥٠٣/٨

} سورة الملك ١٠ لا خلاف أنهم كانوا ذوي أسماع لا يسمعون بها وكذلك عقول لا تغني عنهم ولا يستعملونها فلم تكن مغنية لهم مع تكذيبهم الرسل فبوجود الرسل صح التكليف وبالعقل تمثيل ذلك بعد التوفيق وليس للعقل مدخل فيما تقدم من المعارف وإن كان له ها هنا مدخل فالأصل الرسل والعقل اتبع ذلك

وأما العقل فله مدخل بالغ في معرفة المزيد وكذلك العلم فالعلم بيان الله والعقل حجة الله والرسل هم الحجة الظاهرة المبلغة عن الله مراده والمخبرة بأمره والداعية إلى سبيله ولما كان سبحانه لا سبيل إليه ولا عقول تشرف عليه ولا لنا طاقة إلى استماع كلامه لم يكن بد من بعث الرسل لنعلم بها مراد الربوبية منا ". (١)

" ينافي ذلك فهو كالاعتقاد الذي يظن صاحبه أنه معقول أو معلوم وقد قدمنا أن لفظ الوهم والخيال يقال على الباطل تارة وعلى المطابق أخرى فالمطابق لا ينافي ذلك والباطل لا نزاع فيه

وأيضا فاعتقاد امتناع موجود لا داخل العالم ولا خارجه ثابت بالضرورة الفطرية والمتوهم المتخيل لا يكون ثابتا بالفطرة الضرورية كما تقدم

قال الرازي فثبت أن الوهم والخيال قاصران عن معرفة الله سبحانه وتعالى وصفاته ومع ذلك فإنا نثبت الأفعال والصفات على مخالفة الوهم والخيال وقد ثبت أن معرفة كنه الذات أعلى وأجل وأغمض من معرفة الصفات فلما عزلنا الوهم والخيال في معرفة الصفات والأفعال فلأن نعزلهما من معرفة الذات أولى وأحرى

قلت قد تقدم الكلام على أصول هذا غير مرة من وجوه متعددة

أحدها أن القصور عن معرفة الشيء غير العلم بانتفائه والمنازع له قال إني أعلم انتفاء موجود لا داخل العالم ولا خارجه لم يقل إني قاصر أو عاجز عن معرفة وجوده

الثاني أن قصور الوهم والخيال لا يستلزم قصور العلم والعقل والحس والمنازع له يقول

" الإنسان الشاب وعن مشبهة اليهود أنه على صورة إنسان شيخ وهؤلاء يجوزون الانتقال والذهاب والمجيء على الله تعالى وأما المحققون من المشبهة فالمنقول عنهم أنه على صورة نور من الأنوار

وقال وذكر أبو معشر المنجم أن سبب إقدام الناس على اتخاذ عبادة الأوثان دينا لأنفسهم هو أن القوم في الدهر الأقدم كانوا على مذهب المشبهة وكانوا يعتقدون أن إله العالم نور عظيم فلما اعتقدوا ذلك

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٥١٣/٨

اتخذوا وثنا هو أكبر الأوثان على صورة الإله وأوثانا أخرى أصغر من ذلك الوثن على صورة الملائكة واشتغلوا بعبادة هذه الأوثان على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة فثبت أن دين عبادة الأصنام كالفرع على مذهب المشبهة

قلت هذا الكلام فيه تقصير كثير في معرفة مذاهب الناس وتحقيقها وذلك أن القائلين بأن الله تعالى فوق العرش والقائلين بالصفات الخبرية وهم السلف وأهل الحديث وأئمة الأمة وجماهيرها وجمهور الصفاتية من الكلابية والأشعرية والكرامية وجمهور المشهورين بالإمامة في

" قوله إلى قوله لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان ولله عرش وللعرش حملة يحملونه وله حد الله تعالى أعلم بحده والله تعالى على عرشه عز ذكره وتعالى جده ولا إله غيره ولكن هذا اللفظ يحتمل أن يعود فيه الحد إلى العرش بل ذلك أظهر فيه

قال القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التأويل رأيت بخط أبي إسحاق حدثنا أبو بكر أحمد بن نصر الرفاء سمعت أبا بكر بن أبي داود سمعت أبي يقول جاء رجل إلى أحمد بن حنبل فقال لله تعالى حد فقال نعم لا يعلمه إلا هو قال الله تبارك وتعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش يقول محدقين

وروى الخلال أيضا في كتاب السنة أخبرني يوسف بن موسى أن أبا عبدالله قيل له ولا يشبه ربنا تبارك وتعالى شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه قال نعم ليس كمثله شيء قال أخبرني عبيدالله بن حنبل حدثني أبي حنبل بن إسحاق قال قال عمي نحن نؤمن بالله تعالى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ويحده أحد فصفات الله له ومنه وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية وهو يدرك الأبصار وهو عالم الغيب والشهادة علام الغيوب ولا يدركه وصف واصف وهو كما وصف نفسه ليس في الله شيء محدود ولا يبلغ علم قدرته أحد غلب الأشياء كلها بعلمه وقدرته وسلطانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وكان الله تعالى قبل أن يكون شيئا والله تعالى الأول وهو الآخر ولا يبلغ أحد حد صفاته والتسليم لأمر الله والرضا بقضائه نسأل الله التوفيق والسداد إنه على كل شيء قدير ". (١)

" أن قوله تعالى هو الله أحد برهان قاطع على ثبوت هذه المطالب

---

(١) بيان تلبيس الجهمية، ١/٤٣٠

قال الشيخ رحمه الله مضمون هذه الحجة الاحتجاج بما في أسمائه من الدلالة على لفظ الغنى على عدم هذه الصفات وقال إن ثبوت ما أثبته الدليل من هذه الصفات لم يوجب حاجة الرب إليها وقال أيضا إن هذه الحجة من جنس حجة الجهمية المحضة على نفي الصفات بأنه لو كانت له علم وقدرة وحياة لكان محتاجا في أن يعلم ويقدر ويتكلم إلى علم وقدرة وكلام وقال إن الغني الصمد هو غني عن مخلوقاته ومصنوعاته لا يصح أن يقال هو غني عن نفسه وذاته وقال إن المخلوق إذا صح تسميته بأنه غني وأنه صمد مع ماله من الصفات ولا ينافي ذلك إطلاق هذا الاسم كيف يصح أن يقال إن تسمية الخالق بهذه الأسماء ينافي هذه الصفات

وقال الشيخ رحمه الله ومعنى المركب عندهم أعم من معناه في اللغة فإن المركب والمؤلف في اللغة ما ركبه مركب وألفه مؤلف كالأدوية من المعاجين والأشربة ونحو ذلك وبالمركب ما ركب على غيره أو فيه كالباب المركب في موضعه ونحوه ومنه قوله تعالى في أي صورة ما شاء ركبك وبالتأليف التوفيق بين القلوب ونحو ذلك ومنه قوله تعالى والمؤلفة قلوبهم وقوله وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم وقوله إذ كنتم أعداءا فألف بين قلوبكم ." (١)

وقد ظن طائفة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم أن مراده بقوله هذا ربي أن هذا خالق العالم وأنه استدل بالأفول وهو الحركة والانتقال على عدم ربوبيته وزعموا أن هذه الحجة هي الدالة على حدوث الأجسام وحدوث العالم وهذا غلط من وجوه

أحدها أن هذا القول لم يقله أحد من العقلاء لا من قوم إبراهيم ولا غيرهم ولا توهم أحدهم أم كوكبا أو القمر أو الشمس خلق هذا العالم وإنما كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون هذه الكواكب زاعمين أن في ذلك جلب منفعة أو دفع مضرة على طريقة الكلدانيين والكشدانيين وغيرهم من المشركين أهل الهند وغيرهم وعلى طريقة هؤلاء صنف الكتاب الذي صنفه أبو عبد الله ابن الخطيب الرازي في السحر والطلمسات ودعوة الكواكب وهذا دين المشركين من الهند والخطا والنبط والكلدانيين والكشدانيين وغير هؤلاء ولهذا قال الخليل ياقوم أني برئ مما تشركون وقال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فأنهم عدو لي إلا رب العالمين وأمثال ذلك

---

(١) بيان تلبيس الجهمية، ٥٠٤/١

" قال الشيخ رحمه الله وحديث أبي رزين رواه أحمد والترمذي وغيرهما قال الترمذي حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء فهذا الحديث فيه بيان أنه خلق العرش قبل السموات والأرض وأما قوله في عماء فعلى ما ذكره يزيد بن هارون ورواه عنه أحمد بن منيع وقرره الترمذي من أن معناه ليس معه شيء فيكون فيه دلالة على أن الله كان وليس معه شيء

ثم لو دل على وجود موجود على قول لم يفسر العماء بالسحاب الرقيق لم يكن في ذلك دليل على قول الدهرية بقدم ما ادعوا قدمه ولا بأن مادة السموات والأرض ليستا مبتدعتين وذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بابتداء الخلق الذي يعيده وأخبر بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام في غير موضع وجاءت بذلك الأحاديث الكثيرة وأخبر أيضا أنه يغير هذه المخلوقات

قال الشيخ وقد بسط الكلام على هذه الأمور في مواضع وبين أن ما ينفيه نفاة

" ممكن والعلم بثبوت هذا الإمكان ضروري فثبت أن كل متناه فهو في ذاته ممكن

قوله أن المتناهي يقبل الزائد والنقصان قيل لك هذا ممنوع فيما وجوده بنفسه فإن صفاته تكون لازمة لذاته فلا يمكن أن تكون على خلاف ما هو عليه

فيقولون له أنت دائما تثبت تخصيصا من هذا الجنس كما تقول أن الإرادة تخصص أحد المثلين لا لموجب فإذا قيل لك هذا يستلزم ترجيح أحد المتماثلين بلا رجح قلت هذا

" أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده وما سلف الأمة وأئمتها تجسيما وهذا لا يختص طائفة لا الحنابلة ولا غيرهم بل يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة على أتباع السلف كلهم

قوله الجواب عن الشبهة الأولى أنا قد بينا أن قولهم كل موجودين فإما أن يكون أحدهما حالا في الآخر أو مباينا عنه بالجهة مقدمة غير بديهية بل مقدمة محتاجة في النفي والإثبات إلى برهان منفصل فسقط الكلام

قوله والجواب عن الشبهة الثانية ما بيناه أنه لا يلزم من عدم النظير للشيء عدم ذلك الشيء فسقطت هذه الشبهة

يقال هذه الحجة هي من جنس قولهم لو كان فوق العرش لكان إما أن يكون أصغر منه أو بقدره أو أكبر منه ببعد متناه أو غير متناه وهذه الحجج من حجج الجهمية قديما كما ذكر ذلك الأئمة وذكروا أن جهما وأتباعه هم أول من أحدلث في ألإسلام هذه الصفات السلبية وإبطال نقيضها مثل قولهم ليس فوق العالم ولا هو داخل العالم ولا خارجه وليس في مكان دون مكان وليس بمتحيز ولا جوهر ولا جسم ولا نهاية ولا حد ونحو هذه العبارات فإن هذه العبارات جميعها وما يشبهها لا تؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة الدين المعروفين ولا يروي بها حديث عن النبي صلى الله عليه و سلم ولا توجد في شيء من كتب الله المنزلة من عنده بل هذه هي من أقوال الجهمية ومن الكلام الذي إتفق السلف على ذمة لما أحدثه من أحدثه فحيث ورد في كلام السلف ذم الجهمية كأن أهل هذه العبارات داخلين في ذلك وحيث ورد عنهم الكلام والمتكلمين كان أهل هذه العبارات داخلين في ذلك فإن ذلك لما أحدثه المبتدعون كثر ذم أئمة الدين لهم وكلامهم في ذلك كثير قد صنف فيه مصنفات حتى إن أعيان هذه العبارات وأمثالها ذكرها السلف والأئمة فيما أنكروه على الجهمية وأهل الكلام المحدث ." (١)

" شواهد وهو النصوص التي تدل على ان الله تنتهي اليه الامور وانه في السماء ونحو ذلك وقد يكون لا ادري من اين قال ذلك لكن له شواهد

وقال الخلال انا يوسف بن موسى ان ابا عبد الله احمد بن حنبل قيل له والله تبارك وتعالى فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه بكل مكان قال نعم على عرشه لا يخلو شيء من علمه وقال اخبرني عبد الملك الميموني انه سأل ابا عبد الله ما تقول فيمن قال ان الله ليس على العرش قال كلامهم كله يدور على الكفر

وهذا المحفوظ عن السلف والائمة من اثبات حد لله في نفسه قد بينوا مع ذلك ان العباد لا يحدونه ولا يدركونه ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنه بعض الناس فانهم نفوا ان يحد احد الله كما ذكره حنبل عنه في كتاب السنة والمحنة وقد رواه الخلال في كتاب السنة اخبرني عبد الله بن حنبل حدثني ابي حنبل بن اسحاق قال قال عمي نحن نؤمن بالله عز و جل على عرشه كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف او يحده احد فصفات الله عز و جل منه وله وهو كما وصف نفسه لا تدركه الابصار بحد ولا غاية وهو يدرك الابصار وهو عالم الغيب والشهادة علام الغيوب ولا يدركه وصف واصف وهو كما

---

(١) بيان تلبيس الجهمية، ١٥٦/٢

وصف نفسه وليس من الله شيء محدود ولا يبلغ علمه وقدرته احد غلب الاشياء كلها بعلمه وقدرته وسلطانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وكان الله قبل ان يكون شيء والله الاول وهو الآخر ولا يبلغ احد حد صفاته فالتسليم لامر الله والرضا بقضائه نسأل الله **التوفيق** والسداد انه على كل شيء قدير

وذلك ان لفظ الحد عند كل من تكلم به يراد به شيئآن يراد به حقيقة الشيء في نفسه ويراد به الوجود العيني او الوجود الذهني فاخبر ." (١)

"ص -٦- بنفسه وهو العرض ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث فأشرف هذين القسمين القائم بذاته الغير مفتقر في وجوده إلى غيره وهو الجوهر.

ولما كان الباري تقدست أسماؤه أشرف الموجودات إذ هو سبب سائرها أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر ولهذا قلنا إنه جوهر لا كالجواهر المخلوقة كما نقول إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة وإلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقر في وجوده إلى غيره وهذا من القبيح أن يقال على الله تعالى فقلتلهم إنهم يقولون إنا إنما نمتنع من تسميه جوهرا لأن الجوهر ما قبل عرضا وما شغل الحيز ولهذا ما يطلق عليه القول بأنه تعالى جوهر قالوا إن الذي يقبل عرضا ويشغل حيزا هو الجوهر الكثيف فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضا ولا يشغل حيزا مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء وما يجري هذا المجرى من الجواهر اللطيفة المخلوقة.

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضا ولا تشغل حيزا فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزا كلا.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال أما تسمية الباري جوهرا فهو من أهون ما ينكر على النصارى ولهذا كان من الناس من ينكره من جهة الشرع فقط أو اللغة ومنهم من ينكره من جهة العقل أيضا ومنهم من يراه نزاعا لفظيا وطائفة من المسلمين يسمونه جوهرا وجسما أيضا وذلك أن المسلمين في أسماء الله تعالى على طريقتين فكثير منهم يقول إن أسماءه سمعية شرعية فلا يسمى إلا بالأسماء التي جاءت بها الشريعة فإن هذه عبادة والعبادات مبناها على **التوفيق** والاتباع.

ومنهم من يقول ما صح معناه في اللغة وكان معناه ثابتا لهلم يحرم تسميته به فإن الشارع لم يحرم علينا ذلك

---

(١) بيان تلبيس الجهمية، ١٦٣/٢

فيكون عفوا والصواب القول الثالث وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء أو يخبر بها عنه فإذا دعي لم يدع إلا بالأسماء الحسنى كما قال تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها." (١)

"ص -٤٢٢- عن بعض بني ساعدة قال سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم {أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} وتثبيتهم أن الملائكة تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه وتقول له: "أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم كروا عليهم" فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه وقال: {إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون} وهو في صورة سراقة وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول لا يهولنكم **خذلان** سراقة إياكم فإنه على موعد من محمد وأصحابه ثم قال واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال رأيت يوم أحد عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وعن يساره رجلين عليهم ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ويعني جبرائيل وميكائيل عليهما السلام." (٢)

" بالسماع وإيراد حكايات عن بعض الشيوخ كان الأولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم فذلك نظير الشرك وقرين الكفر

فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم فإن اليسير منه فتح باب **الخذلان** وبدء حال الهجران ونعوذ بالله من قضاء السوء

وهنا أصل عظيم نافع يجب اعتباره وهو ان الأمور المذمومة في الشريعة كما ذكرناه هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٣/٦

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٤٦٢/٦

ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن ." (١)

" مأمورين به لكنه سبحانه لا يفعله بهم ولا يحب من يفعله بهم فلا بد من التفريق بين مواقع الامر والنهي ومواقع القضاء والقدر وان كانت الافعال الواقعة من العباد يشترك فيها الامر والنهي واما احوال القلب وانفاسه فإن الاحوال تحولات القلب والنفس والهوى الذي يحمل الصوت واحوال القلب فهما الطف ما في الايمان

قال ابو القاسم ربط الحق بأقدامهم الخذلان واختار لهم البعد واخرجهم عن محل القرب ولذلك يؤخروا وفي معناه انشدوا

... انا اصب لن هويت ولكن ... ما احتيالي لسوء رأى الموالى ." (٢)

"[لا قتل] (١)

ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن، وكان علي – رضي الله عنه – يحلف دائما: " إني ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله " ويقول: " اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل ". وغاية ما يقال: إنهم لم ينصروه حق (٢) .

النصرة، وأنه حصل نوع من الفتور والخذلان، حتى تمكن أولئك المفسدون. ولهم في ذلك تأويلات، وما كانوا يظنون أن الأمر يبلغ إلى ما بلغ، ولو علموا ذلك لسدوا الذريعة وحسموا مادة (٣) .

الفتنة.

ولهذا قال تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} [سورة الأنفال: ٢٥] ، فإن الظالم يظلم فيبتلى الناس بفتنة تصيب من لم (٤)

يظلم، فيعجز (٥) .

عن ردها حينئذ، بخلاف ما لو منع الظالم ابتداء، فإنه كان يزول سبب الفتنة.

الثاني (٦) وهذا هو الوجه الثاني من وجوه الجواب، وبدأ الأول في الصفحة السابقة.

: أن هؤلاء الرافضة في غاية التناقض والكذب ؛ فإنه من المعلوم (٧)

---

(١) الاستقامة، ٤٦١/١

(٢) الاستقامة، ٤٧/٢

١ - أن الناس أجمعوا على بيعة عثمان ما لم يجمعوا (٨) .

على قتله ؛ فإنهم كلهم بايعوه في جميع الأرض. فإن جاز الاحتجاج بالإجماع الظاهر، فيجب (٩) أن تكون بيعته حقا لحصول الإجماع عليها. وإن لم

---

(١) عبارة " لا قتل " في (أ) ، (ب) فقط وسقطت من سائر النسخ.

(٢) ن (فقط) : غاية

(٣) ن: باب

(٤) ب، ر، ص: لا.

(٥) ب (فقط) : فيعجزون

(٦) ن، م، و: الثالث ؛ ب: ثانيهما.

(٧) أ، ب: فإنه معلوم.

(٨) ص: عثمان ولم يجمعوا.

(٩) أ، ب: وجب.." [١]

"النساك " (١) وكان من أصحاب الجنيد، ومن شيوخ (٢) أبي طالب المكي، [كان] (٣) من أهل العلم بالحديث وغيره، ومن أهل المعرفة بأخبار الزهاد وأهل الحقائق.

وهذا الذي ذكره الجنيد من الفرق بين القديم والمحدث، والفرق بين المأمور والمحظور، بهما يزول ما وقع فيه كثير من الصوفية من هذا الضلال. ولهذا كان الضلال منهم يذمون الجنيد على ذلك، كابن عربي وأمثاله، فإن له كتابا سماه " الإسرا إلى المقام الأسرى " (٤) مضمونه حديث نفس ووساوس (٥) شيطان حصلت في نفسه، جعل ذلك معراجا كمعراج الأنبياء (٦) ، وأخذ يعيب على الجنيد وعلى غيره من الشيوخ ما ذكروه، وعاب على الجنيد قوله: " التوحيد إفراد الحدوث عن القدم " وقال: قلت له: يا جنيد، ما يميز بين الشيئين إلا من كان خارجا عنهما، وأنت إما

---

(١) ن: أبو سعد الأعرابي، وهو أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي، ولد سنة ٢٤٦، وكان من

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٤/٣٢٣

أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري، وتوفي سنة ٣٤١، وذكر سزكين كتابه " طبقات النساك "، وقال: أفاد منه أبو نعيم في " حلية الأولياء " والذهبي في " تذكرة الحفاظ ". وانظر ترجمته وأقواله في القشيرية ١٦٥/١، طبقات الصوفية، ص ٤٢٧ - ٤٣٠، شذرات الذهب ٣٥٤/٢ - ٣٥٥، حلية الأولياء ٣٧٥/١٠ - ٣٧٦، لسان الميزان ٣٠٨/١ - ٣٠٩، الأعلام ١٩٩/١ سزكين م [٠ - ٩] ج [٠ - ٩] ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) ن: ومن أصحاب.

(٣) كان: ساقطة من (ن) .

(٤) هذا الكتاب لابن عربي ضمن مجموعة رسائل ابن العربي، ط حيدر آباد الدكن ١٣٦٧/١٩٤٨

(٥) و: ووسوسة.

(٦) انظر كتاب " الإسرا إلى مقام الأسرى وانظر قوله ص ٩ - ١٠ " فبينما أنا نائم، وسر وجودي متهجد قائم، جاءني رسول **التوفيق**، ليهديني سواء الطريق، ومع براق الإخلاص، عليه لبد الفوز ولجام الإخلاص، فكشف عن سقف محلي، وأخذ في نقضي وحلي، وشق صدري بسكين السكينة، وأسرى بي من حرم الأكوان، إلى قدس الجنان، فربطت البراق بحلقة بابه، وأتيت بالخمر واللبن، فشربت ميراث تمام اللبن، وتركت الخمر، حذرا أن أكشف السر بالسكر.." (١)

"والمؤمن معه عزة الإيمان (١) ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم هم يدعون الإيمان دون الناس، والذلة فيهم أكثر منها في سائر الطوائف من المسلمين.

وقد قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [سورة غافر: ٥١] .

وهم أبعد طوائف أهل الإسلام عن النصرة، وأولاهم **بالخذلان**. فعلم أنهم أقرب (٢) طوائف [أهل] (٣) الإسلام إلى النفاق، وأبعدهم عن الإيمان.

وآية ذلك أن المنافقين حقيقة، الذين ليس فيهم إيمان من الملاحدة، يميلون إلى الرافضة، والرافضة تميل إليهم أكثر من سائر الطوائف.

وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (٤) . وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: اعتبروا الناس بأخدانهم.

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٣٤٠/٥

فعلم أن بين أرواح الرافضة وأرواح المنافقين اتفاقا (٥) محضا: قدرا مشتركا وتشابها، وهذا لما في الرافضة من النفاق، فإن النفاق شعب.

كما في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «أربع

---

(١) ب: غيرة الإيمان.

(٢) ن: أبعد، وهو خطأ.

(٣) أهل: ساقطة من (ن) ، (م) .

(٤) الحديث عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما: في البخاري ٤/١٣٣ - ١٣٤ كتاب الأنبياء، باب: الأرواح جنود مجندة، مسلم ٤/٢٠٣١ كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، سنن أبي داود ٤/٣٥٩ كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، المسند ط. المعارف ١٥/٧٧ ط. الحلبي ٢/٥٢٧، ٥٣٩

(٥) م: نفاقا، وهو تحريف.." (١)

"الله عليه وسلم اختصاص عظيم، وكانوا من أعظم الناس اختصاصا به، وصحبة له، وقربا إليه، واتصالا به، وقد صاهرهم كلهم، وما عرف عنه أنه كان يذمهم، ولا يلعنهم، بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثني عليهم.

وحينئذ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهرا وباطنا، في حياته وبعد موته، وإما أن يكونوا بخلاف ذلك في حياته أو بعد موته، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرب، فأحد الأمرين لازم: إما عدم علمه بأحوالهم، أو مداهنته لهم، وأيهما كان فهو أعظم القدح في الرسول صلى الله عليه وسلم كما قيل:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا **خذلان** من الله للرسول في خواص أمته، وأكابر أصحابه، ومن قد أخبر بما سيكون بعد ذلك، أين كان عن علم ذلك؟ وأين الاحتياط للأمة حتى لا يولى مثل هذا أمرها، ومن وعد أن يظهر دينه على الدين كله، فكيف يكون أكابر خواصه مرتدين؟

فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرافضة في الرسول، كما قال مالك وغيره: إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٦/٤٢٦

في الرسول ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين. ولهذا قال أهل العلم: إن الرافضة دسيسة الزندقة، وإنه وضع عليها. وطريق آخر أن يقال: الأسباب الموجبة لعلي – إن كان هو المستحق –." (١)

"فيها. ومثل هذا من الكلام قولك: هو بخراسان أمير، وبمصر أمير، فالإمارة تجتمع له فيهما، وهو حال بأحدهما أو بغيرهما. هذا واضح لا يخفي.

فإن قال لنا: كيف النزول منه جل وعز؟ قلنا: لا نحكم على النزول منه بشيء، ولكنا نبين كيف النزول منا، وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ، والله أعلم بما أراد.

والنزول منا يكون بمعنيين:

أحدهما: الانتقال من مكان إلى مكان، كنزولك من الجبل إلى الحضيض، ومن السطح إلى الدار.

والمعنى الآخر: إقبالك إلى الشيء بالإرادة والنية. كذلك الهبوط والارتفاع والبلوغ والمصير، وأشباه هذا من الكلام.

ومثال ذلك: إن سألك سائل عن محل قوم من الأعراب ـ وهو لا يريد المصير إليهم ـ فتقول له: إذا صرت إلى جبل كذا فانزل منه وخذ يمينا، وإذا صرت إلى وادي كذا فاهبط فيه ثم خذ شمالا، وإذا سرت إلى أرض كذا فاعل هضبة هناك حتى تشرف عليهم، وأنت لا تريد في شيء مما تقوله افعله ببدنك، إنما تريد افعله بنيتك وقصدك.

وقد يقول القائل: بلغت إلى الأحزاب تشتمهم، وصرت إلى الخلفاء تطعن عليهم، وجئت إلى العلم تزهد فيه، ونزلت عن معالي الأخلاق إلى الدناءة، ليس يراد في شيء من هذا انتقال الجسم، وإنما يراد به القصد إلى الشيء بالإرادة والعزم والنية، وكذلك قوله: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: ١٢٨] لا يراد به أنه معهم بالحلول؛ ولكن بالنصر والتوفيق والحياطة.

وكذلك قوله عز وجل:: "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة "

قال: وثنا عن عبد المنعم، عن أبيه، عن وهب بن منبه؛ "أن موسى ـ عليه السلام ـ لما نودي من الشجرة {فاخلع نعليك} [طه: ١٢] أسرع الإجابة، وتابع التلبية، وما كان ذلك إلا استئناسا منه بالصوت، وسكونا

---

(١) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ٧/٤٥٩

إليه.

وقال: إني أسمع صوتك، وأحس حسك، ولا أدري مكانك، فأين أنت؟ قال:: أنا فوقك، وأمامك وخلفك، ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك": يريد: إني أعلم بك منك؛ لأنك إذا نظرت إلى ما بين يديك خفي عليك ما وراءك، وإذا." (١)

"والحديث الثالث الذي لفظه: "كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان".

هل هذه الأحاديث صحيحة أم سقيمة أو بعضها صحيح وبعضها سقيم؟ وما الصحيح منها؟ وهل فيها زيادة الراوي العدل أم لا؟ وما معناها على الإطلاق؟

وكان بخط الكاتب في الحاشية ما نصه: رواية الشيخ.

والمقصود بيان ما بنى على هذه الأحاديث من مقالات القائلين بوحدة الوجود وما يتصل بذلك من أقاويل الفلاسفة والقرامطة الباطنية ونحو ذلك وبيان الحق من الباطل وبالله تعالى **التوفيق**." (٢)

"المعارض الذي يكون أقوى منه وصفه بأنه حسن" (١) .

ثم تعرض لموضوع: هل الاستحسان من باب تخصيص العلة أم لا؟ ونقل عن المسودة نصا في ذلك. وجاء باحث آخر، وهو الدكتور عمر بن عبد العزيز، فتوصل بعد دراسته لرسالة شيخ الإسلام في معنى القياس إلى أنه منع من إطلاق "المخالف للقياس" على ما ثبت شرعا على الوجه المخصوص، وأن المسائل الفقهية التي قيل بمخالفتها للقياس بين شيخ الإسلام موافقتها له، ولكنه بعد ذلك جعله من القائلين بالاستحسان، الذي يلتقي في بعض أنواعه مع المعدول به عن القياس، أو ما يسمى بالمخالف للقياس، واعتبر هذا موقفا آخر، وحاول **التوفيق** بين الموقفين وقال: "إن اعترافه بالاستحسان وإنكاره للمخالف للقياس ينسجمان انسجاما لا يشوبه شبهة التعارض ... ذلك أنه إنما أنكر اسم "خلاف القياس" لما ثبت شرعا، لإفضائه إلى اللوازم الستة التي سبق ذكرها، إذ كان فيه إشعار بثبات ذلك القياس بالنسبة لهذا الذي أفرد بحكم آخر بدليل شرعي آخر ... أما الاستحسان فإنه يشعر بأن دور القياس المعدول عنه قد انتهى بالنسبة لهذا الذي أفرد بحكم، وأنه ما ينبغي أن يدخل هذا الفرد في نطاقه، ويأخذ حكمه، فلا يستلزم أيا من تلك اللوازم الستة الباطلة. أضف إلى، ذلك أن اسم الاستحسان يشعر بالمدح والثناء"!! (٢) .

---

(١) شرح حديث النزول ابن تيمية ص/٦١

(٢) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ابن تيمية ص/١٧٠

(١) المصدر السابق: ١١٣.

(٢) المعدول به عن القياس- حقيقته وحكمه وموقف شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية منه: ٤٥ (المدينة المنورة ١٤٠٨) .." (١)

"وقد تنازع الناس هل كان قنوته راتبا أو منسوخا أو كان لسبب عارض ثم تركه لزواله؟ على ثلاثة أقوال، والثالث قول أهل الحديث، وهو الصواب، وهو قنوت النوازل، كقنوته على الذين قتلوا القراء يوم بئر معونة، فقنت شهرا بعد الركوع يدعو عليهم، وكقنوته يدعو للمستضعفين بمكة، فكان يدعو في قنوته لقوم، ويدعو على قوم من الكفار لينصر عليهم. وكذلك عمر بن الخطاب كان يقنت إذا أرسل جيشا إلى الشام بالقنوت الذي فيه الدعاء على أهل الكتاب، وهو من قنوته موقوف عليه ليس مرفوعا. وكذلك علي قنت في حروبه. وقد سأل أبو ثور الإمام أحمد عن القنوت فقال: في النوازل، فقال: وأي نازلة أعظم من نازلتنا؟ قال: فاقنتوا إذا، أو كما قال، يريد بذلك امتحان الجهمية للمسلمين.

فإذا نزل بالمسلمين أمر عام قنتوا فيه، كما إذا ظهر قوم من المبتدعة والمنافقين قنت المؤمنون، وكذلك في الفتن التي تقع بين المسلمين من الافتراق والاختلاف. لكن لما وقعت الفرقة في زمن علي هل قنت الناس للجماعة والائتلاف كما قنت الطائفتان المقتتلتان؟ أو قنتت كل طائفة تطلب النصر على الأخرى؟ وفي حروب النبي – صلى الله عليه وسلم – عام الأحزاب ونحوه لم لم يقنت أو لم لم ينقل قنوته؟ فإن المأثور عنه القنوت حيث لم يمكنه النصرة بالقتال، كقنوته على الذين قتلوا القراء، وللمستضعفين الذين بمكة من المؤمنين بخلاصهم.

وكذلك عمر كان يقنت لجنوده، ويدعو لهم بالنصر، ويدعو علي الكفار **بالخذلان** والنكال، وهذا عوض عن مباشرته القتال بنفسه.." (٢)

"فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على (١) رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

(١) جامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس ابن تيمية ١٤٢/٢

(٢) جامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس ابن تيمية ٢٩٨/٦

ومن اعتمد على العفو مع الإصرار فهو كالمعاند.

وقال معروف (٢): رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من **الخذلان** والحمق (٣).

وقال بعض العلماء: من قطع عضوا منك (٤) في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا (٥).

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي (٦).

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام

---

(١) س: "إلي".

(٢) هو الكرخي، الزاهد المشهور المتوفى سنة ٢٠٠ هـ.

(٣) ورد في طبقات الصوفية للسلمي (٨٩) بلفظ: "وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق".

(٤) ف: "منك عضوا".

(٥) نقل المؤلف نحوه من كلام أبي الوفاء بن عقيل فيما يأتي في ص ٧٥.

(٦) صفة الصفوة (٢/ ١١٧). وزاد بعده في ط المدني والسلفية: "وكان يقول: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة. يقول أحدهم: لأني حسن الظن بربي، وكذب! لو أحسن الظن لأحسن العمل". ولم ترد هذه الزيادة في شيء من النسخ التي بين أيدينا.." [1]

"وهل من طريق قاصد إلى **التوفيق؟** وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق؟

وهل يملك العاشق قلبه، والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه (١) من سوء دائه؟

إن لامه لائم التذ بملامه ذكرا (٢) لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عذله (٣)، وسار به في طريق مطلوبه. ينادي عليه شاهد حاله، بل لسان قاله (٤):

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم

وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا ... ما من يهون عليك ممن يكرم

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥١

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حيا لذكرك فليلمني اللوم (٥)

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طلب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأس "وما أنزل الله سبحانه من داء إلا

---

(١) ف: "من برئه".

(٢) ف: "ذاكر‌ا".

(٣) "أغراه عذله" ساقط من س.

(٤) ف: "شاهد حاله بلسان قاله".

(٥) الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه (١٥١). وقد أوردها المصنف في روضة المحبين (٤٥٢)، وانتقدها في طريق الهجرتين (٦٥٩).." [1]

"واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه -إن أطاعه- الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته (١).

فتأمل حال أكثر عشاق الصور (٢)، هل (٣) تجدها مطابقة لذلك؟ ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، وزن وزنا يرضي الله ورسوله، ويطابق العدل.

وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قال العاشق الخبيث (٤):

يترشفن من فمي رشفات ... هن أحلى فيه من التوحيد (٥)

وكما صرح الخبيث (٦) الآخر بأن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه، -فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان (٧) - فقال: [١٠٧/ ب]

وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل (٨)

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك.

---

(١) ف: "ساعته".

(٢) س: "العشاق للصور".

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤١٤

(٣) لم ترد "هل" في ف، ل.

(٤) ل: "الحبيب"، تصحيف.

(٥) من قصيدة للمتنبي قالها في صباه. ديوانه (٣٥).

(٦) ل: "الحبيب"، تصحيف.

(٧) س: "فعياذا بالله من هذه الحال ومن هذا **الخذلان**". وأشير في الحاشية إلى ما أثبتناه من غيرها.

(٨) سبق البيت مع قصته (٣٩٥).." [١]

"على غضبه وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته وما فيها من الإهانة والإبعاد **والخذلان** دال على بغضه ومقته وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات قال تعالى {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} أي أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله فآياته شاهدة بصدقه وهو شاهد بصدق رسوله بآياته وهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين كيف أطلب لدليل على من هو دليل على كل شيء فأي دليل طلبته عليه فوجده أظهر منه ولهذا قال الرسل لقومهم {أفي الله شك} فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه

فائدة في المسند وصحيح أبي الحاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال

قال رسول الله ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٨٩

في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت." (١)

"وعدلهم تكذيبا بالقدر وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه وهو سبحانه وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغي على من شاء فذلك محض العدل فيه لأنه وضع الإضلال **والخذلان** في موضعه اللائق به كيف ومن أسمائه الحسنى العدل الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول وهذا عدله ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه فهذا فضله وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله وهذا نوعان أحدهما ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه وتناسي ذكره وشكره فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه والثاني أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه ولا يثني عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله قال تعالى {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين} وقال {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم} فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلا فيه وإن كان مخلوقا على هذه الصفة وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر والمقصود أن قوله ماض في حكمك عدل في قضاؤك رد على الطائفتين القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره ويردون القضاء إلى الأمر والنهي وعلى الجبرية الذين يقولون كل مقدور عدل فلا يبقى لقوله عدل في قضاؤك فائدة فإن العدل عندهم كل ما يمكن." (٢)

"وأبو جهل في رقدة المخالفة لما قضى في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل **التوفيق** عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه وبه أجاب فرعون موسى لئن اتخذت إلها غيري وبه أجاب الجهمية الإمام

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٢١

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٢٥

أحمد لما عرضوه على السياط وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام حين استدعوه السجن وها نحن على الأثر فنزل به ضيف ولنبلونكم فنال بإكرامه مرتبة سلمان منا أهل البيت فسمع أن ركبا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود فوقف نفسه على خدمه الأدلاء وقوف الأذلاء فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الأعلام على نبوة نبينا وقالوا إن زمانه قد أظل فاحذر أن تضل فرحل مع رفقة لم يرفقوا به فشروه بثمن بخس دراهم معدودة فأتباعه يهودي بالمدينة فلما رأى الحرة توقد حرا شوقه ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير وسلمان في رأس نخلة وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها فعجل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول

خليلي من نجد قفا بي على الربا ... فقد هب من تلك الديار نسيم فصاح به سيده مالك انصرف إلى شغلك فقال

كيف انصرافي ولي في داركم شغل

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش خليلي لا والله ما أنا منكما ... إذا علم من آل ليلى بداليا." (١)

"غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلف من سبقت له سابقة السعادة دل على الدليل قبل الطلب إذا أراد القدر شخصا بذر في أرض قلبه بذر **التوفيق** ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ثم أقام عليه بأطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم فإذا الزرع قائم على سوقه إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة وردفه قمر العزيمة أشرقت أرض القلب بنور ربها إذا جن الليل تغالب النوم والسهر فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة والكسل والتواني في كتيبة الغفلة فإذا حمل العزم حمل على الميمنة وانهزمت جنود التفريط فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان وبردت الغنيمة لأهلها سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة النجائب في الأول وحاملات الزاد في الأخير لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طردت ولا تقطع الاعتذار ولو رددت فإن فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية وابسط كف وتصدق علينا يا مستفتحا باب المعاش بغير إقليد التقوى كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٤٠

ولو وقفت عند مراد التقوى لم يفتك مراد المعاصي سد في باب الكسب وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه

تالله ما جئتكم زائرا ... إلا وجدت الأرض تطوي لي

ولا انثنى عزمي عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي

الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيء للسباق من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يشغله كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا فإن الولد يتبع الأم الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها فكيف تعدو خلفها الدنيا جيفة والأسد لا يقع على الجيف الدنيا مجاز والآخرة وطن والأوطار إنما تطلب في الأوطان

الاجتماع بالإخوان قسمان أحدهما اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت فهذا." (١)

"قاعدة أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك وأن السيئات من **خذلانه** وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد وكل شر فأصله **خذلانه** لعبده وأجمعوا أن **التوفيق** أن لا يكلك الله نفسكوان **الخذلان** أن يخلي بينك وبين نفسك فإذا كان كل خير فأصله **التوفيق** وهو بيد الله إلى نفسك وأن لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه وعلى قدرنية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم **والخذلان** ينزل عليهم على حسب ذلك فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع **التوفيق** في مواضعه اللائقة به **والخذلان** في مواضعه اللائقة به هو العليم الحكيم وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٥١

الله خلقت النار لإذابة القلوب القاسية أبعد القلوب من الله القلب القاسي إذا قسي القلب قحطت العين قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة الأكل والنوم والكلام والمخالطة كما." (١)

"أدنى بالذي هو خير ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناآت والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الانشغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من **التوفيق** وأما النار فطبعها العلو والإفساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله وكذلك المخلوق منها فهي دائما بين العلو إذا هاجت واضطربت وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت والأخلاق المذمومة تابعة للنار والخلوق منها والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل

فصل المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة فمن فقدهما
تعذر عليه الوصول إليه فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه ولا يتم له إلا بترك ثلاثة أشياء العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس الثاني هجر العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه." (٢)

"فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة وبأنه لا خوف عليه ولا حزن وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٩٧

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٤٤

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم

فصل ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز أنه كان

إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي فيه مرضاة الله مطالعا فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن فالذي من عليه بذلك هو الذي من عليه بالقول الفعل فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه وإعانته فإذا غاب عن تلك الملاحظة وثبت النفس وقامت في مقام الدعوى فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل فتارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة **والتوفيق** وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة وإن أثمر أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة **التوفيق** والمنة ورؤية نفسه وأن القول والفعل به

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس فإذا أراد الله." (١)

"الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد والحب الذي يلقيه الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد والطحين على قدر الحب وصاحب الحب المضر لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجد الرحى فارغة من الحب النافع وقيمها قد أهملها وأعرض عنها فحينئذ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها

وبالجملة فقيم الرحا إذا تخلى عنها وعن إصلاحها وإلقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل إلى إفسادها وإرادتها بما معه وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك وما أحسن ما قال بعض العقلاء لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضا للمتألف ورأيت الزوال حاكما عليها مدركا لها انصرفت عن جميعها إلى ما لا ينازع فيه الحجا أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر والله المستعان

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٥٢

قال شقيق بن إبراهيم أغلق باب **التوفيق** عن الخلق من ستة أشياء اشتغالهم بالنعمة عن شكرها ورغبتهم في العلم وتركهم العمل والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها قلت وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة وأصله ضعف اليقين وأصله ضعف البصيرة وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته وشرف النفس ونبلها وكبرها وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها قال تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها أي أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من ذلك وأجل والنفس المهينة." (١)

"والآيات في حق غيره وليس الله كمن رآها عيانا في غيره فكيف بمن وجدها في نفسه سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم فآياته في الآفاق مسموعة معلومة وآياته في النفس مشهودة مرئية فعياذا بالله من **الخذلان** قال تعالى إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم {وقال} ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله

والعاقل المؤيد **بالتوفيق** يعتبر بدون هذا ويتم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله فكلما امتحى من جثمانه أثر زاد إيمانه وكلما نقص من قوى بدنه زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة وإن لم يكن هكذا فالموت خير له لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الغرض والتوبة النصوح كما قال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم وإلا فلا خير له في حياته فإن العبد على جناح سفر إما إلى الجنة وإما إلى النار فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة فإنه كلما طال السفر أيها كانت الصبابة أجل وأفضل وإذا

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٧٧

طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولا له إلى أسفل فالمسافر إما صاعد وإما نازل وفي الحديث المرفوع خيركم من طال عمره وحسن عمله وشركم من طال عمره وقبيح عمله
فالطالب الصادق في طلبه كما خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته وكلما منع شيئا من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله في أفراح آخرته." (١)

"ثم فكرت هل للتوفيق **والخذلان** سبب أم هما بمجرد المشية لا سبب لهما فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان وكذلك النوعان كل منهما متفاوت في القبول فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني فإذا كان المحل قابلا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظمه عليها ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة من غير أن يكون هو مستحقا لها ولا هي له ولا به وإنما هي لله وحده وبه وحده فوحده بنعمته إخلاصا وصرفها في محبته شكرا وشهدها من محض جوده منة وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجز أو ضعفا وتفريطا وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له وكلما زاده من نعمه ازداد زلالة وانكسارا وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم توفيته شكرها كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يلق أن يقابل به سلبه إياها ولا بد قال تعالى وكذلك فتنا بعضهم ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا على المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره وقال تعالى وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته

فصل وسبب **الخذلان** عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو
وافته النعم لقال هذا لي وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى قال إنما أوتيته على علم عندي أي على علم علمه عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله قال." (٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٨٩

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٢٠٥

"ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب **الخذلان** من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها فأسباب **الخذلان** منها وفيها وأسباب **التوفيق** من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة فأسباب **التوفيق** منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتي الفرق أبو العباس احمد بن تيمية رحمه الله

فصل قال الله تعالى

الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ووصينا الأنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقال الله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل." (١)

"هو صحيح الإسناد

وقال أبو محمد بن حزم

هو صحيح وليس في رجال هذا الإسناد من ينبغي النظر فيه إلا سفيان بن حسين هذا [فإنهم أئمة الإسلام وهداة الأنام فنقول وبالله تعالى **التوفيق** سفيان هذا قد وثقه أحمد بن عبد الله العجلي ويحيى ابن معين في رواية محمد بن سعد وقال كان يخطئ

ووثقه عثمان بن أبي شيبة

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٢٠٧

وقال عباس الدوري

سالت يحيى عنه فقال ليس به بأس وليس من أكابر أصحاب الزهري

وقال يحيى في رواية ابن أبي خيثمة

هو صالح وحديثه عن الزهري ليس بذاك إنما سمع منه بالموسم." (١)

"المحلل لا الشافعي ولا أحمد ولا أبو حنيفة ولا غيرهم ممن شرط المحلل وأيضا فإن أحدا من الأئمة الستة لم يخرجه في كتابه ولا أحد من الأئمة الأربعة ولا طبقة الحاكم لم ينقله مع فرط تساهله أن يستدركه عليهما هذا ودلالته على اشتراط المحلل أبين من دلالة حديث سفيان بن حسين فكيف غفل عنه هؤلاء الأئمة كلهم أو أغفلوه هذا من الممتنع عادة على الجميع مع علمهم إلى ما يدل على ما دل عليه وبالله تعالى **التوفيق**

فصل

الرد على الدليل الثالث

قالوا وأما دليلكم الثالث وهو حديث أبي هريرة لا جلب ولا جنب وإذا لم يدخل المتراهنان فرسا يستبقان على السبق فيه فهو حرام فحديث لا تقوم به حجة ولا يثبت بمثله حكم فإن راويه مجهول العين والحال لا يعرف اسمه ولا نسبه ولا حاله إلا أنه رجل من بني مخزوم ومثل هذا لا يحتج بحديثه باتفاق أهل الحديث وأيضا فإن هذا الحديث منكر فإن هذا المجهول تفرد به من بين أصحاب أبي الزناد كلهم مع اعتنائهم بحديثه وحفظهم له فكيف يفوتهم ويظفر به مجهول العين والحال." (٢)

"والذي يظهر منه أن هذه الزيادة من كلام أبي الزناد أدرجت في الحديث والحديث المحفوظ عن أبي هريرة ما رواه الناس عنه لا جلب ولا جنب فقط فحدث به أبو الزناد ثم أتبعه من عنده وإذا لم يدخل المتراهنان فرسا إلى آخره فحمله هذا الراوي المجهول عنه وحدث به من غير تمييز وبالجملة فالكلام في هذا الحديث كالكلام في الذي قبله بل بطلانه أظهر والله اعلم

فصل

---

(١) الفروسية ابن القيم ص/٢١٤

(٢) الفروسية ابن القيم ص/٢٩٢

الرد على الدليل الرابع

قالوا وأما دليلكم الرابع في قصة المتقامرين في الظبي أيهما يسبق إليه وأن عمر بن الخطاب قال هذا قمار فتعلق ببيت العنكبوت لأن عمر لم يجعله قمارا لعدم المحلل وإنما كان قمارا لأنه أكل مال بالباطل فإنهما استبقا إلى فعل لا يجوز بذل السبق فيه بالاتفاق وهو أخذ الصيد في حال الإحرام فهذا قمار وإن دخل فيه المحلل وحتى لو كان استبقا إلى فعل جائز على الأقدام فأكل المال به قمار عند الجمهور لأنه ليس من الخف والحافر والنصل

هذا مع أن الحديث من رواية المتفق على ضعفه علي بن زيد بن جدعان وبالله تعالى **التوفيق**." (١)

"ورسوله فلا تكون مسموعة ولا مقبولة ثم نقول ثانيها إن كان الإخراج قد وقع من كلا الفريقين فالحديث حجة عليكم فإنه قال ارموا وأنا مع بني فلان والمحلل لا يكون مع أحدهما وثالثها إن كان المخرج أحد الفريقين أو لم يكن إخراج بالكلية بطل استدلالكم بالحديث فهو إما أن يكون حجة عليكم أو ليس لكم فيه حدة أصلا

فإن قيل فما فائدة دخوله صلى الله عليه وسلم مع كلا الفريقين إذا لم يكن محللا فالجواب إن النبي صلى الله عليه وسلم لما صار مع أحد الحزبين أمسك الحزب الآخر وعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في حزب كان هو الغالب المنصور فلم يحتاجوا أن يكونوا في الحزب الذي ليس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما علم ذلك منهم طيب قلوبهم وقال أنا معكم كلكم هذا مقتضى الحديث الذي يدل عليه وهو برئ من التحليل وبالله تعالى **التوفيق**

فصل

الرد على الدليل السادس

قالوا وأما دليلكم السادس وهو أنه إذا لم يكن معهما محلل وأخرجا معا فقد دار كل واحد منهما بين المغنم والمغرم وهذا حقيقة القمار فقد تقدم من الوجوه الكثيرة التي لا جواب لكم عنها ما يبطله." (٢)

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه فينبغي للعاقل بأن يعد رواحه إلى المرمى كرواحه إلى المسجد واجتماعه بمن هناك كاجتماعه برؤساء الناس وأكابرهم ومن ينبغي احترامه منهم ولا يعد رواحه

---

(١) الفروسية ابن القيم ص/٢٩٣

(٢) الفروسية ابن القيم ص/٢٩٥

لهوا باطلا ولعبا ضائعا بل هو كالرواح إلى تعلم العلم فيذهب على وضوء ذاكرا الله عز وجل عامدا إلى روضة من رياض الجنة وعليه السكينة والوقار فإذا وصل إلى الموضع دخل بأدب وسلم ووضع سلاحه وحسن أن يصلي ركعتين وليس بتحية البقعة ولكنها مفتاح للنجاح والإصابة فالأمور إذا افتتحت بالصلاة كانت جديرة بالنجح ثم يدعو ويسأل الله **التوفيق** والسداد وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يا علي سل الله الهدى والسداد واذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم ثم يخرج قوسه ويتفقده ثم يتفقد سهامه فيمرها على إبهامه وينظر ما ينبغي الرمي به فإذا وقع اختياره على رشق منه وهو الندب." (١)

"مصالحهما بمثل الصلاة، وسر ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد **التوفيق** من ربه عز وجل، والعافية والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه.

صبر: «الصبر نصف الإيمان» «١» ، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال تعالى:

إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور «٢» .

والصبر من الإِيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله فلا يضيعها، وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها وصبر على أقضيته وأقداره، فلا يتسخطها، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر، وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة.

فالصبر طلسم على كنز العلى ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل

---

(١) الفروسية ابن القيم ص/٤٤٥

الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله، فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم، فإن الله

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، والخطيب في تاريخه، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) ابراهيم- ٥٠.." (١)

"قال من رجح الغيث الشتوي: حرارة الشمس تكون حينئذ أقل، فلا تجتذب من ماء البحر إلا ألطفه، والجو صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية، والغبار المخالط للماء، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه، وخلوه من مخالط.

قال من رجح الربيعي: الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهواء ولطافته، فيخف بذلك الماء، وتقل أجزاؤه الأرضية، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء.

وذكر الشافعي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصابنا مطر، فحسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبه، وقال: «إنه حديث عهد بربه» «١» ، وقد تقدم في هديه في الاستسقاء ذكر استمطاره صلى الله عليه وسلم، وتبركه بماء الغيث عند أول مجيئه.

حرف الفاء

فاتحة الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «وما أدراك أنها رقية» .

ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة، الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٥١

(١) أخرجه مسلم في صلاة الاستسقاء.." [١]

"وعابد للنيران وعابد للصلبان أو عابد للشمس والقمر والنجوم كافر بالله الحي القيوم أو تائه في بيداء ضلالته حيران قد استهواه الشيطان وسد عليه طريق الهدى والإيمان فالمعروف عنده ما وافق إرادته ورضاه والمنكر ما خالف هواه قد تخلى عنه الرحمن وقارنه **الخذلان** يسمع ويبصر بهواه لا بمولاه ويبطش ويمشي بنفسه وشيطانه لا بالله فباب الهدى دونه مسدود وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباع مرضاته مصدود فأهل الأرض بين تائه حيران وعبد للدنيا فهو عليها لهفان ومنقاد للشيطان جاهل أو جاحد أو مشرك بالرحمن فالأرض قد غشيتها ظلمة الكفر والشرك والجهل والعناد وقد استولى عليها أئمة الكفر وعساكر الفساد وقد استند كل قوم إلى ظلمات آرائهم وحكموا على الله بين عباده بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم فسوق الباطل نافقة لها القيام وسوق الحق كاسدة لا تقام فالأرض قد صالت جيوش الباطل في أقطارها." [٢]

"أن الفاقد لصفات الكمال أكمل من الموصوف بها كما أن عند أستاذهما وشيخهما الفيلسوف أن من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا فعل ولا كلام ولا يرسل رسولا ولا ينزل كتابا ولا يتصرف في هذا العالم بتحويل وتغيير وإزالة ونقل وإماتة وإحياء أكمل ممن يتصف بذلك فهؤلاء كلهم قد خالفوا صريح المعقول وسلبوا الكمال عمن هو أحق بالكمال من كل ما سواه ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال نقصا وعدمه كمالا فعكسوا الأمر وقلبوا الفطر وأفسدوا العقول فتأمل شبههم الباطلة وخيالاتهم الفاسدة التي عارضوا بها الوحي هل تقاوم هذا الدليل الدال على إثبات الصفات والأفعال للرب سبحانه ثم اختر لنفسك بعد ما شئت.

وهذا قطرة من بحر نبهنا به تنبيها يعلم به اللبيب ما وراءه وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقه وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا أو قدرتنا لكتبنا فيه عدة أسفار وكذا كل وجه من هذه الوجوه فإنه لو بسط وفصل لاحتمل سفرا أو أكثر والله المستعان وبه **التوفيق**.

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٦٢

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١/١٤٩

الوجه الخامس والخمسون: إن غاية ما ينتهي إليه من ادعى معارضة العقل للوحي أحد أمور أربعة لا بد له منها إما تكذيبها وجحدها وإما اعتقاد أن الرسل خاطبوا الخلق بها خطابا جمهوريا." (١)

"به حياها ونورها الذي انقشعت به عنها ظلماؤها وغذاؤها الذي به قوام قوتها ودواؤها الذي به حفظ صحتها وهو البرهان الذي زاد على برهان الشمس ضياء ونورا فلو: { ... اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء٨٨] .

فيه نبأ ما كان قبلنا وخبر ما يكون بعدنا وحكم ما بيننا وهو الجد ليس باللعب والفصل ليس بالهزل وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأ العظيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيتشعب ولا تخلق بهجته على كثرة الترداد بل لا يزداد على تتابع التلاوة إلا بهجة وطلاوة وحلاوة من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ومن أعرض عنه أو عارضه بعقله أو رأيه أو سياسته أو خياله فالضلال منتهاه والنار منقلبه ومثواه **والخذلان** قرينه." (٢)

"رجلا معه نعوذ بالله من **الخذلان** ومعضلات الفتن ثم ألزمهم ابن كلاب بمذهب الدهرية الملاحدة وأن يكونوا وهم بمنزلة واحدة فقال في هذا الكتاب يقال للجهمية أليست الدهرية كفارا ملحدين في قولهم إن الدهر هو واحد إلا أنه لا ينفك عن العالم ولا ينفك العالم عنه ولا يباين العالم ولا يباينه ولا يماس العالم ولا يماسه ولا يداخل شيئا من العالم ولا يداخله لأنه واحد والعالم غير مفارق له فإذا قالوا نعم قيل لهم صدقتم فلم أثبتم المعبود بمعنى الدهر وأكفرتم من قال بمثل مقالتكم هل تجدون بينكم وبينه فرقا أكثر من أن سميتموه بغير ما سموه به وقد قلتم إنه غير مفارق العالم ولا العالم مفارق له ولا هو داخل في العالم ولا العالم داخل فيه ولا مماس للعالم ولا العالم مماس له ولم رجعتم على من خالفكم بالتكفير وزعمتم أنهم كفروا لأنهم قالوا واحد منفرد بأين فلم لا كنتم أولى بالكفر والتشبيهة منهم إذا زعمتم مثل زعم الملحدين وقلتم مثل مقالة الضالين وخرجتم من توحيد رب العالمين وقال في موضع آخر من هذا الكتاب وأخرج من." (٣)

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٩١٧/٣

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١١٤٠/٣

(٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١٢٤٠/٤

"وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو **الخذلان** الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجمعون على أن **التوفيق** أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، **والخذلان** أن يكلك الله تعالى إلى نفسك.

فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فجمع في قوله صلي الله عليه وسلم أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسا، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والافلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد." (١)

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص/٧

"مقصود الصلاة ولا يحصل المراد منها، فمن فقه الرجل في عبادته أن يقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه.

والمقصود أن لا يترخص ترخصا جافيا.

ومن ذلك أنه أرخص للمسافر في الجمع بين الصلاتين عند العذر وتعذر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة السير وتعذر النزول أو تعسيره عليه، فإذا قام في المنزل اليومين والثلاثة أو أقام اليوم فجمعه بين الصلاتين لا موجب له لتمكنه من فعل كل صلاة في وقتها من غير مشقة، فالجمع ليس سنة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد، بل الجمع رخصة، والقصر سنة راتبة، فسنة المسافر قصر الرباعية سواء كان له عذر أو لم يكن، وأما جمعه بين الصلاتين فحاجة ورخصة، فهذا لون وهذا لون.

ومن هذا أن الشبع في الأكل رخصة غير محرمة فلا ينبغي أن يجفو العبد فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والامتلاء فيتطلب ما يصرف به الطعام فيكون همه بطنه قبل الأكل وبعده، بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع ويدع الطعام وهو يشتهيه، وميزان ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» ولا يجعل الثلاثة الأثلاث كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغاليا فيه حتى يفوت الوقت، أو يردد تكبيرة الأحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدد في الورع الغالي حتى لا يأكل شيئا من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه.

ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العباد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئا من بلاد الاسلام وكان يتقوت بما يحمل إليه من بلاد النصارى ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك، **ف**أوقعه الجهل المفرط والغلو الزائد في إساءة الظن بالمسلمين وحسن الظن بالنصارى نعوذ بالله من **الخذلان.**

فحقيقة التعظيم للامر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال.

فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه، وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما افراط وغلو.

فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيستامه، فإن وجد فيه فتورا وتوانيا وترخيصا." (١)

"الآخرة التي يبعدها منه الشيطان والأمل، فلا يزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها، فحينئذ تصغر في عينه الدنيا وتعظم في قلبه الآخرة، ويبعد القريب إليه وهي الدنيا التي هي أدنى إليه من الآخرة، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا، كلما قربت منه هذه مرحلة بعدت منه هذه مرحلة، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر.

(الأربعون)

أن الذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سنته.

والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شد المئزر وأحيا بقية عمره واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإن الغفلة نوم ثقيل.

(الحادية والأربعون)

أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، وهو أصل كل مقام وقاعدته التي ينبي ذلك المقام عليها، كما يبني الحائط على رأسه وكما يقوم السقف على حائطه.

وذلك أن العبد أن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقط إلا بالذكر كما تقدم، فالغفلة نوم القلب أو موته.

(الثانية والأربعون)

أن الذكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه.

وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة النصرة والتوفيق، كقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا} .

{والله مع الصابرين} .

{وإن الله لمع المحسنين} .

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص/١٤

{لا تحزن إن الله معنا} وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر كما في الحديث الإلهي أنا مع عبدي ما." (١)

"موقف الأئمة من السنة

وقد حكى الشافعي رضي الله تعالى عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد، ولم يسنرب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه، فإن الحجة الواجب إتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذا بالله من **الخذلان**.

وقال تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين} ، فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطا له.." (٢)

"والعقاب، ولهذا كان اصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك. وانه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد **التوفيق** كتبت في ذلك سفرا كبيرا لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشقاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له، الصدر ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص/٦٥

(٢) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه ابن القيم ص/٣٧

العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الإسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.." (١)

"يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علما وإرادة وعملا بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوى فان هذه الأمور تنافي الكمال، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد **التوفيق** فهو القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى، وتمت لهم العناية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أبدا إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين." (٢)

"يطير بجناحيه بل جعلها أمما وهداها إلى غاياتها ومصالحها وكيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ومنها قوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} النوع الثالث: هداية **التوفيق** والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله: {يضل من يشاء ويهدي من يشاء} وفي

---

(١) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه ابن القيم ص/٧٠

(٢) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه ابن القيم ص/٧٧

قوله: {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل} وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له " رواه مسلم وأحمد والبيهقي وفي قوله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت} فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} النوع الرابع: غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم} وقال أهل الجنة فيها: {الحمد لله الذي هدانا لهذا} وقال تعالى عن أهل النار: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم} إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله: {الصراط المستقيم} إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد **والتوفيق** والإلهام طلب التعريف والبيان **والتوفيق** فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له وكذلك الإلهام **والتوفيق** قلنا: لقد أجيب عنها بأن المراد التثبيت ودوام الهداية واعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور هو محتاج إليها حاجة." (١)

"تفخيم للفعل وتعظيم له من شكر بطنه إذا امتلأ فالأصل شكرت لزيد إحسانه وفعله ثم تحذف المفعول فتقول شكرت لزيد ثم تحذف الحرف لأن شكرت متضمنة لحمدت أو مدحت وأما كلت لزيد ووزنت له فمفعولهما غير زيد لأن مطلوبها ما يكال أو يوزن فالأصل دخول اللام ثم قد يحذف لزيادة فائدة لأن كيل الطعام ووزنه يتضمن معنى المبايعة والمقاوضة إلا مع حرف اللام فإن قلت كلت لزيد أخبرت بكيل الطعام خاصة وإذا قلت كلت زيدا فقد أخبرت بمعاملته ومبايعته مع الكيل كأنك قلت بايعته بالكيل والوزن قال تعالى: {وإذا كالوهم أو وزنوهم} أي بايعوهم كيلا أو وزنا وأما قوله: {اكتالوا على الناس} فإنما دخلت على لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري ودخلت التاء في اكتالوا لأن افتعل في هذا الباب كله للأخذ لأنها زيادة على الحروف الأصلية تؤذن بمعنى زائد على معنى الكلمة لأن الأخذ للشيء كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه والاحتمال إلى رحله ما لا يدخل فعل المعطي والمبايع ولهذا قال سبحانه: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} يعني من السيئات لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة شهوة ولا إغراء عدو فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي وفيه فرق أحسن من هذا وهو أن الاكتساب يستدعي التعمل

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٣٧/٢

والمحاولة والمعاناة فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله وأما الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهم بالحسنة ونحو ذلك فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: "إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها وإن هم بسيئة فلا تكتبوها " رواه البخاري ومسلم وأما حديث: "الواسطة وعدمها" فضعيف لأن الخير أيضا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق فهذا في مقابلة وسائط الشرط فالفرق ما ذكرناه والله أعلم.." (١)

"في الدنو إليه منه و {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه فإن الله تعالى يقول: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه صلى الله عليه وسلم {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره وفي الدعاء المشهور "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لم لا أعلم" فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال: له قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد فما أسعده من عبد وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه ولكن التوفيق والرشد بيد الله لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع فما كل أحد يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولاقوة إلا بالله السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٧٤/٢

الحاسد ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق وإن أصابه شيء من." (١)

"وقد زادني حبا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امريء غير طائل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من **التوفيق** وسد على نفسه أبواب جهنم وفتح عليها أبواب الرحمة وانغمر ظاهره وباطنه ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء فعند الممات يحمد القوم التقي وعند الصباح يحمد القوم السرى والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.." (٢)

"قال تعالى: {ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم} [سورة النحل: ١١٠] فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

[فصل الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه]

فصل

الذين اعتمدوا على عفو الله فضيعوا أمره ونهيه

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من **الخذلان** والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

وكان يقول: إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢/٢٤٢

(٢) بدائع الفوائد ابن القيم ٢/٢٧٦

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمنا خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، فيقولون: يا فلان: ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» .

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: «مر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالبقيع فقال: أف لك فظننت أنه يريدني، قال: لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعيا إلى آل فلان، فغل نمرة فدرع الآن مثلها من نار» .." (١)

"الآثار المرفوعة: " «إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» " ولكن لا يجب الحد بذلك، لعدم الإيلاج، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام، كزنى العين واليد والرجل والفم.

وإذا ثبت هذا: فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز، واحتج على ذلك بقوله تعالى: {إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين} [سورة المعارج: ٣٠] .

وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر، يستتاب كما يستتاب المرتد، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم.

[فصل دواء اللواط]

فصل

دواء اللواط

فإن قيل: فهل مع هذا كله دواء لهذا الداء العضال؟ ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخبال؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق؟ وهل يمكن السكران بخمر الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويدائه؟ وإن لامه لائم التذ

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٨

بملامه ذكرا لمحبوبه، وإن عذله عاذل أغراه عذله، وسار به في طريق مطلوبه، ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس ... لي متأخر عنه ولا متقدم

وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا ... ما من يهون عليك ممن يكرم

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذي وقع عليه الاستفتاء، والداء الذي طلب له الدواء.

قيل: نعم، الجواب من رأس: " «ما أنزل الله سبحانه من داء إلا جعل له دواء،» علمه من علمه وجهله من جهله ".

والكلام في دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقي◌ن:

أحدهما: حسم مادته قبل حصولها.." (١)

"إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة وهل هذا إلا من أبطل الباطل فإن قيل هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء وليس مرادهم ما ذكر وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به وإن كانت لله فيه المنة عليهم فإنه لا يمن عليهم به بل يقال هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا وهذا أجركم فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم قيل وهذا أيضا هو الباطل بعينه فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنا له ولا معاوضة عنه وقد قال أعلم الخلق بالله لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل \ح\ فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله **وبالتوفيق** لطاعته وبالإعانة عليها فهو المان بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجوده لا حق لأحد عليه بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء فإن قيل كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لا يعذبهم وقد أخبر عن نفسه أن حقا عليه." (٢)

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/١٧٧

(٢) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٥٠

"الأقوال والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع وأتمه وقد بد بينا في كتابنا المعالم بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء وبتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد إذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه وصفاته تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة حرام عليه ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع وبه **التوفيق**

فصل

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان في غير موضعه وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ وتثنى عليه الخناصر وتعقد عليه القلوب والأفئدة ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ولا محاكمة إلا إليه ولا مخاصمة إلا به ولا اهتداء." (١)

"يراه قد اجتمع همه كله على الله وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا والله المستعان

وههنا نكتة ينبغي التفطن لها وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة فالعبادات والأذكار والتعوذات أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته وإن أزال منه شيئا ما فمدار الأمر على على شيئين الحمية واستعمال الأدوية

فصل

وأول ما يطرق القلب الخطرة فإن دفعها استراح مما بعدها وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب فإن بادر ودفعها وإلا قويت وصارت شهوة فإن عالجها وإلا صارت إرادة فإن عالجها وإلا صارت عزيمة ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها واقترن بها الفعل ولا بد وما يقدر عليه مرة بدون مقدماته وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله إن ساعد القدر وأعان **التوفيق** وإن الدفع أولى به

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٢٣٤

وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة." (١)

"أما بعد: فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى مهملا، بل جعلهم موردا للتكليف، ومحلا للأمر والنهى، وألزمهم (فهم) ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا وقسمهم إلى شقى وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضلا، فمن استعمل ذلك فى طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إله ولم يبغ عنه عدولا، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلا. ومن استعمله فى إرادته وشهوته ولم يرع حق خالقه فيه يخسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزنا طويلا. فإنه لا بد من الحساب على حق هذه الأعضاء لقوله تعالى: {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا} [الإسراء: ٣٦] .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود، الذى تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبى صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله". فهو ملكها، وهى المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما كان يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شئ من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته. وهو المسؤول عنها كلها "لأن كل راع مسؤول عن رعيته" كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون. والنظر فى أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إله، وزين له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغى بما يقطعه عن أسباب **التوفيق**، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه فى حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذى هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول فى ضمان {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} [الحجر: ٤٢] فهذه الإضافة هى

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٤٢٠

القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب." (١)

"له من الألم قبل حصوله، ومن النكد فى حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته، أضعاف أضعاف ما فى حصوله له من اللذة:

فما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا فى كل ... حالمخافة فرقة، أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا، شوقا إليهم ... ويبكى إن دنوا، حذر الفراق

فتسخن عينه عند التلاقى ... وتسخن عينه عند الفراق

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه" فذكره: جميع أنواع طاعته، فكل من كان فى طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر، وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه؛ فاللعنة لا تنال ذلك إلا بوجهه، وهى نائلة كل ما عداه.

الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمله منه، فلا بد أن يخذل من الجهة التى قدر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى:

{واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: ٨١-٨٢] وقال تعالى: {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون} [يس: ٧٤- ٧٥] .

أى يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كل عليهم. وقال تعالى:

{وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب} [هود: ١٠١] . أى غير تخسير، وقال تعالى: {فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين} [الشعراء: ٢١٣] وقال تعالى: {لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٥

مخذولا} [الإسراء: ٢٢] .
فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له **الخذلان** والذم.
والمقصود: أن هذين الوجهين فى المخلوق وضدهما فى الخالق سبحانه. فصلاح القلب." (١)
"واحكم فأى الخمرتين أحق بالتحريم، والتأثيم عند الله؟
وقال آخر:
برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت ياقوم، أنتم على ... شفا جرف مابه من بنا
شفا جرف تحته هوة ... إلى درك، كم به من عنا
وتكرار النصح منا لهم ... لنعذر فيهم إلى ربنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... رجعنا إلى الله فى أمرنا
فعشنا على سنة المصطفى ... وماتوا على تنتنا تنتنا
ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى، تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض، وتحذر من سلوك سبيلهم، واقتفاء آثارهم من، جميع طوائف الملة.
قال الإمام أبو بكر الطرطوشى فى خطبة كتابه، فى تحريم السماع:
الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونسأله أن يرينا الحق حقا فنتبعه، والباطل باطلا فنجتنبه. وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية إذا واقعها، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها، ثم كثر الجهل، وقل العلم، وتناقص الأمر، حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهارا، ثم ازداد الأمر إدبارا، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين- وفقنا الله وإياهم- استزلهم الشيطان، واستغوى عقولهم فى حب الأغانى واللهو، وسماع الطقطقة والنقير، واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين
{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء: ١١٥] . فرأيت أن أوضح الحق، وأكشف عن شبه أهل الباطل، بالحجج التى

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٤٠

تضمنها كتاب الله، وسنة رسوله، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها، حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها. والله ولى **التوفيق**.

ثم قال: أما مالك فإنه نهى عن الغناء، وعن استماعه، وقال: "إذا اشترى جارية فوجدها مغنية له أن يردها بالعيب".." (١)

"الرابع: الاحتيال على فعل المحلوف عليه، بتغيير اسمه، أو صفته. أو نقله من مالك إلى مالك، ونحو ذلك.

فإذا غلبوا عن شئ من هذه الحيل الأربعة فزعوا إلى التيس المستعار، فاستأجروه ليسفد ويأخذ على سفاده أجرا.

فليوازن من يعلم أنه موقوف بين يدى الله تعالى ومسئول، بين هذه الطرق وتلك الطرق التى قبلها. وليقم لله ناظرا، ومناظرا متجردا من العصبية والحمية، فإنه لا يكاد يخفى عليه الصواب، والله ولى **التوفيق**.

فصل

وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام: {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث} [ص: ٤٤] .

فمن العجب أن يحتج بهذه الآية من يقول إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط، فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر فى يمينه.

هذا قول أصحاب أبى حنيفة، ومالك، وأصحاب أحمد.

وقال الشافعى: إن علم أنها مسته كلها بر فى يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر. وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجبا لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب تعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط، أو ثمانين، ويضرب بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجزئ فى حق المريض، كما قال الإمام أحمد فى المريض عليه الحد "يضرب بعثكال يسقط عنه الحد".

واحتج بما رواه عن أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: "كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدع، فلم يرع الحى إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها، قال: فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان ذلك الرجل." (٢)

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٢٢٦

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/ ٩٧

"وبليته وتدوم، فمحنة المؤمن خفيفة منقطعة، ومحنة الكافر والمنافق والفاجر شديدة متصلة.

فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر، تحصل له اللذة والنعيم ابتداء، ثم يصير إلى الألم، فلا يطمع أحد أن يخلص من المحبة والألم البتة، يوضحه:

الأصل العاشر: وهو أن الإنسان مدنى بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم. وفى الموافقة ألم وعذاب، إذا كانت على باطل، وفى المخالفة ألم وعذاب، إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم، وإراداتهم ولا ريب أن ألم المخالفة لهم فى باطلهم أسهل من الألم المترتب على موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور، أو المعاونة على محرم. فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فرارا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولا بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد، فألم يسير يعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تعقب ألما عظيما دائما، **والتوفيق** بيد الله.

الأصل الحادى عشر: أن البلاء الذى يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام. فإنه إما أن يكون فى نفسه، أو فى ماله، أو فى عرضه أو فى أهله ومن يحب.

والذى فى نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد فى الله.." [١]

"القوم يقين وقطع بأن الله سبحانه منزه عن النقائص والعيوب.

وأهل السنة يقولون: إن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاته، وهو أظهر فى العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء.

ومن العجب أن هؤلاء جاءوا إلى ما علم بالاضطرار أن الرسل جاءوا به، ووصفوا الله سبحانه به، ودلت عليه العقول والفطر والبراهين، فنفوه، وقالوا: إثباته يستلزم التجسيم والتشبيه، فلم يثبت لهم قدم البتة، فيما

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٩٣

يثبتونه له سبحانه، وينفونه عنه. وجاءوا إلى ما علم بالاضطرار والفطر والعقول، وجميع الكتب الإلهية من تنزيه الله سبحانه عن كل نقص وعيب، فقالوا: ليس فى أدلة العقل ما ينفيه، وإنما ننفيه بما ننفى به التشبيه. وليس فى **الخذلان** فوق هذا، بل إثبات هذه العيوب والنقائص يضاد كماله المقدس وهو سبحانه موصوف بما يضادها وينافيها من كل وجه، ونفيها أظهر وأبين فى العقول من نفى التشبيه، فلا يجوز أن يثبت له على وجه لا يشابه فيه خلقه.

والمقصود: أنه لم يكن فى الأمم من مثله بخلقه، وجعل المخلوق أصلا ثم شبهه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه فى الأمم، حيث شبهوا أوثانهم ومعبوديهم به فى الإلهية، وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام، فأعرض عنه وعن بيان بطلانه أهل الكلام، صرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق الذى لم تعرف أمة من الأمم عليه، وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال.

ولهذا موضع مهم نافع جدا، به يعرف الفرق بين ما نزه الرب سبحانه نفسه عنه، وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه، وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله، ويزعمون أن القرآن دل عليه وأريد به نفيه.

والقرآن مملوء من إبطال أن يكون فى المخلوقات ما يشبه الرب تعالى أو يماثله، فهذا هو الذى قصد بالقرآن، إبطالا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله تعالى غيره.

قال تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} [البقرة: ٢٢]." (١)

"ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمان بالله تعالى: بقولهم:

{ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا} [الفرقان: ١٨] .

قال ابن عباس: أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم ووسعت لهم فى الرزق.

وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قوما بورا: أى هلكى فاسدين، قد غلب عليهم الشقاء **والخذلان**. والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسى قوم ذكر الله عز وجل إلا باروا وفسدوا.

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/٢٢٨

قال الله تعالى {فقد كذبوكم بما تقولون} [الفرقان: ١٩] .

أى كذبكم المعبودون بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين فى الدنيا: أى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان والأول أظهر، وعليه يدل السياق.

ومن قرأها - آخر الحروف - فالمعنى، فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال:

{فما تستطيعون صرفا ولا نصرا} [الفرقان: ١٩] .

إخبارا عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادى مناد يوم القيامة، حين يجمع الخلائق:

يقول: من عبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه:

{بل هم اليوم مستسلمون} [الصافات: ٢٦] .

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوا سوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء.

{وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون} [يس: ٥٩ - ٦٢] .." (١)

"وفى ذلك من قوة الإيمان، وظهور جلالته، ومعرفة قدره، وتمام نعمة الله تعالى على أهله به، ومعرفة قدر **خذلانه** للعبد، وإلى أى شيء يصيره **الخذلان**، حتى يصير ضحكة لكل عاقل. فأى ضلال، وأى **خذلان**، أعجب من أن يفنى عمره فى النظر والبحث. وهذا غاية علمه بالله عز وجل، وبالمبدإ والمعاد؟

فصل

والمجوس تعظم الأنوار، والنيران، والماء، والأرض. ويقرون بنبوة زرادشت. ولهم شرائع يصيرون إليها. وهم فرق شتى.

منهم: المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ. والموبذ عندهم: العالم القدوة. وهؤلاء يرون الاشتراك فى النساء

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/٢٤٣

والمكاسب كما يشترك فى الهواء، والطرق، وغيرها.
ومنهم الخرمية: أصحاب بابك الخرمى. وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع، ولا." (١)
"هى أرض كنعان] .
فلما رأت هذه الأمة الجد من الفرس فى منعهم من الصلاة، اخترعوا أدعية [زعموا أنها فصول من صلاتهم] سموها الحزانة، وصاغوا لها ألحانا عديدة، وصاروا يجتمعون فى أوقات صلاتهم على تلحينها وتلاوتها. وسموا القائم بها الحزان.
والفرق بينها وبين الصلاة: أن الصلاة بغير لحن، والمصلى يتلو الصلاة وحده، ولا يجهر معه غيره. والحزان يشاركه غيره فى الجهر بالحزانة، ويعاونونه فى الألحان.
فكانت الفرس إذا أنكرت ذلك منهم، قالت اليهود: إنا ننعى أحيانا، وننوح على أنفسنا. فيتركونهم وذلك.
فلما قام الإسلام وأقرهم على صلاتهم استصحبوا تلك الحزانة، ولم يعطلوها.
فهذه فصول مختصرة فى كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة، يعرف بها المسلم الحنيف قدر نعمة الله تعالى عز وجل عليه، وما من به عليه من نعمة العلم والإيمان، ويهتدى بها من أراد الله تعالى هدايته من طالبى الحق من هذه الأمة.
ومن الله التوفيق والإرشاد إلى سواء الطريق. والحمد لله رب العالمين.." (٢)
"[مقدمة الكتاب]
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق خلقه أطوارا، وصرفهم في أطوار التخليق كيف شاء عزة واقتدارا، وأرسل الرسل إلى المكلفين إعذارا منه وإنذارا، فأتم بهم على من اتبع سبيلهم نعمته السابغة، وأقام بهم على من خالف مناهجهم حجته البالغة، فنصب الدليل، وأنار السبيل، وأزاح العلل، وقطع المعاذير، وأقام الحجة، وأوضح المحجة، وقال: {هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل} [الأنعام: ١٥٣] وهؤلاء رسلي {مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: ٥61] ، فعمهم بالدعوة على ألسنة رسله حجة منه وعدلا، وخص بالهداية من شاء منهم نعمة وفضلا، فقيل: نعمة الهداية من سبقت له سابقة السعادة وتلقاها باليمين، وقال: {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/٢٤٧
(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/٣٦٧

وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} [النمل: ١٩] ، وردها من غلبت عليه الشقاوة ولم يرفع بها رأسا بين العالمين، فهذا فضله وعطاؤه {وما كان عطاء ربك محظورا} [الإسراء: ٢٠] ولا فضله بممنون، وهذا عدله وقضاؤه فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فسبحان من أفاض على عباده النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأودع الكتاب الذي كتبه، إن رحمته تغلب غضبه، وتبارك من له في كل شيء على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وحكمته أعدل شاهد، ولو لم يكن إلا أن فاضل بين عباده في مراتب الكمال حتى عدل الآلاف المؤلفة منهم بالرجل الواحد، ذلك ليعلم عباده أنه أنزل **التوفيق** منازله، ووضع الفضل مواضعه، وأنه {يختص برحمته من يشاء} [آل عمران: ٧٤] {وهو العليم الحكيم} [التحريم: ٢] ، {وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} [الحديد: ٢٩] أحمده **والتوفيق** للحمد من نعمه، وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من فضله وكرمه وقسمه، واستغفره وأتوب إليه من الذنوب التي توجب زوال نعمه وحلول نقمه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، ولأجلها جردت سيوف." (١)

"معه؛ فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟ فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولا، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجا ومخرجا؛ وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد؛ فمن كان قيامه في باطل لم ينصر، وإن نصر نصرا عارضا فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولا، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة؛ فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبدا؛ فإن كان صاحبه

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ٣/١

محقا كان منصورا له العاقبة، وإن كان مبطلا لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعينا به متوكلا عليه مفوضا إليه بريا من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء ألبتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء.

قال الإمام أحمد: حدثنا داود أنبأنا شعبة عن واقد بن محمد بن زيد عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: من أسخط الناس برضاء الله عز وجل كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس.

[الواجب على من عزم على فعل أمر ما]

والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولا هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحا يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة، فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو معان عليه أم لا؟ فإن لم يكن معانا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه، وإن كان معانا عليه بقي عليه نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئا؛ فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] الفاتحة." (١)

"فوائد تكرير السؤال]

وكان أيوب إذا سأله السائل قال له: أعد، فإن أعاد السؤال كما سأله عنه أولا أجابه، وإلا لم يجبه، وهذا من فهمه وفطنته - رحمه الله -، وفي ذلك فوائد عديدة: منها أن المسألة تزداد وضوحا وبيانا بتفهم السؤال، ومنها أن السائل لعله أهمل فيها أمرا يتغير به الحكم فإذا أعادها ربما بينه له، ومنها أن المسئول قد يكون ذاهلا عن السؤال أولا، ثم يحضر ذهنه بعد ذلك، ومنها أنه ربما بان له تعنت السائل وأنه وضع المسألة؛ فإذا غير السؤال وزاد فيه ونقص فربما ظهر له أن المسألة لا حقيقة لها، وأنها من الأغلوطات أو غير الواقعات التي لا يجب الجواب عنها؛ فإن الجواب بالظن إنما يجوز عند الضرورة، فإذا وقعت المسألة صارت حال ضرورة فيكون التوفيق إلى الصواب أقرب، والله أعلم.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ٢/١٢٢

[القول في التقليد وانقسامه]

[أنواع ما يحرم القول به]

ذكر تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى ما يحرم القول فيه والإفتاء به، وإلى ما يجب المصير إليه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب.

[أنواع ما يحرم القول به]

فأما النوع الأول فهو ثلاثة أنواع: أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء. الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله. الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد، والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة، وهذا قلد بعد ظهور الحجة له؛ فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله.

وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} [البقرة: ١٧٠] وقال تعالى: {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} [الزخرف: ٢٣] {قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم} [الزخرف: ٢٤] وقال تعالى: {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا} [المائدة: ١٠٤] وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء.

فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، ولم يذم من." (١)

"اعتبار القرائن وشواهد الأحوال] قيل: هذا من أدل الدلائل على اعتبار القرائن والأخذ بشواهد الأحوال في التهم، وهذا يشبه إقامة الحدود بالرائحة والقيء كما اتفق عليه الصحابة، وإقامة حد الزنا بالحبل كما نص عليه عمر وذهب إليه فقهاء أهل المدينة وأحمد في ظاهر مذهبه، وكذلك الصحيح أنه يقام الحد على المتهم بالسرقة إذا وجد المسروق عنده، فهذا الرجل لما أدرك وهو يشتد هربا وقالت المرأة: هذا هو الذي فعل بي، وقد تعترف بأنه دنا منها وأتى إليها وادعى أنه كان مغيثا لا مريبا، ولم ير أولئك الجماعة غيره، كان في هذا أظهر الأدلة على أنه صاحبها، وكان الظن المستفاد من ذلك لا يقصر عن الظن المستفاد من شهادة البينة، واحتمال الغلط وعداوة الشهود كاحتمال الغلط أو عداوة المرأة ههنا، بل ظن عداوة المرأة

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ١٢٩/٢

في هذا الموضع في غاية الاستبعاد؛ فنهاية الأمر أن هذا ظاهر لا يستبعد ثبوت الحد بمثله شرعا كما يقتل في القسامة باللوث الذي لعله دون هذا في كثير من المواضع؛ فهذا الحكم من أحسن الأحكام وأجراها على قواعد الشرع، والأحكام الظاهرة تابعة للأدلة الظاهرة من البينات والأقارير وشواهد الأحوال، وكونها في نفس الأمر قد تقع غير مطابقة ولا تنضبط أمر لا يقدح في كونها طرقا وأسبابا للأحكام، والبينة لم تكن موجبة بذاتها للحد، وإنما ارتباط الحد بها ارتباط المدلول بدليله، فإن كان هناك دليل يقاومها أو أقوى منها لم يلغه الشارع، وظهور الأمر بخلافه لا يقدح في كونه دليلا كالبينة والإقرار.

وأما سقوط الحد عن المعترف فإذا لم يتسع له نطاق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فأحرى أن لا يتسع له نطاق كثير من الفقهاء، ولكن اتسع له نطاقِ الرءوف الرحيم، فقال: إنه قد تاب إلى الله، وأبى أن يحده، ولا ريب أن الحسنة التي جاء بها من اعترافه طوعا واختيارا خشية من الله وحده، وإنقاذا لرجل مسلم من الهلاك، وتقديم حياة أخيه على حياته واستسلامه للقتل أكبر من السيئة التي فعلها، فقاوم هذا الدواء لذلك الداء، وكانت القوة صالحة، فزال المرض، وعاد القلب إلى حال الصحة، فقيل: لا حاجة لنا بحدك، وإنما جعلناه طهرة ودواء؛ فإذا تطهرت بغيره فعفونا يسعك، فأي حكم أحسن من هذا الحكم وأشد مطابقة للرحمة والحكمة والمصلحة؟ وبالله التوفيق.

وقد روينا في سنن النسائي من حديث الأوزاعي: ثنا أبو عمار شداد قال: حدثني أبو أمامة «أن رجلا أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله أصبت حدا فأقمه علي، فأعرض عنه، ثم قال: إني أصبت حدا فأقمه علي، فأعرض عنه، ثم قال: يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه علي، فأعرض عنه، فأقيمت الصلاة، فلما سلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: يا رسول الله إني." (١)

"الشرط ممكن أم لا؟ فإن ساعدتمونا على الإمكان، ولا ريب في هذه المساعدة قربت المسافة جدا، وحصلت المساعدة على أنه طلاق معلق صح تعليقه على شرط ممكن، فبقيت منزلة أخرى، وهي أن تأثير الشرط وعمله يتوقف على الاستقبال أم لا يتوقف عليه بل يجوز تأثيره في الماضي، والحال والاستقبال؟ . فإن ساعدتمونا على توقف تأثيره على الاستقبال، وأنه لا يصح تعلقه بماض، ولا حال – وأنتم بحمد الله على ذلك مساعدون – بقي بيننا وبينكم منزلة واحدة، وهي أنه هل لنا سبيل إلى العلم بوقوع هذا الشرط فيترتب المشروط عليه عند وقوعه أم لا سبيل لنا إلى ذلك ألبتة فيكون التعليق عليه تعليقا على ما لم

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ١٦/٣

يجعل الله لنا طريقا إلى العلم به؟ فهاهنا معترك النزال، ودعوة الأبطال، فنزال نزال.

فنقول: من أقبح القبائح، وأبين الفضائح، التي تشمئز منها قلوب المؤمنين، وتنكرها فطر العالمين، ما تمسك به بعضكم، وهذا لفظه بل حروفه، قال: لنا إنه علق الطلاق بما لا سبيل لنا إليه فوجب أن يقع؛ لأن أصله الصفات المستحيلة، مثل قوله: " أنت طالق إن شاء الحجر " أو " إن شاء الميت ": أو " إن شاء هذا المجنون المطبق الآن " فيا لك من قياس ما أفسده، وعن طريق الصواب ما أبعده، وهل يستوي في عقل أو رأي أو نظر أو قياس مشيئة الرب جل جلاله ومشيئة الحجر والميت والمجنون عند أحد من عقلاء الناس؟ .

وأقبح من هذا والله المستعان، وعليه التكلان وعياذا به من **الخذلان**، ونزغات الشيطان تمسك بعضهم بقوله علق الطلاق بمشيئة من لا تعلم مشيئته فلم يصح التعليق، كما لو قال ": أنت طالق إن شاء إبليس " فسبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، وعياذا بوجهك الكريم، من هذا **الخذلان** العظيم، ويا سبحان الله، لقد كان لكم في نصرة هذا القول غنى عن هذه الشبهة الملعونة في ضروب الأقيسة، وأنواع المعاني والإلزامات فسحة ومتسع، ولله شرف نفوس الأئمة الذين رفع الله قدرهم، وشاد في العالمين ذكرهم، حيث يأنفون لنفوسهم، ويرغبون بها عن أمثال هذه الهذيانات التي تسود بها الوجوه قبل الأوراق، وتحل بقمر الإيمان المحاق.

وعند هذا فنقول: علق الطلاق بمشيئة من جميع الحوادث مستندة إلى مشيئته، وتعلم مشيئته عند وجود كل حادث أنه إنما وقع بمشيئته، فهذا التعليق من أصح التعليقات، فإذا أنشأ المعلق طلاقا في المستقبل تبينا وجود الشرط بإنشائه فوقع؛ فهذا أمر معقول شرعا وفطرة وقدرا، وتعليق مقبول.

يبينه أن قوله: إن شاء الله لا يريد به إن شاء الله طلاقها ماضيا قطعا، بل إما أن يريد به هذا الطلاق الذي تلفظ به أو طلاقا مستقبلا غيره، فلا يصح أن يراد به هذا الملفوظ؛ فإنه لا." (١)

"والدماء إلى ربها عجيجا، تبدل فيه الأحكام، ويقلب فيه الحلال والحرام، ويجعل المعروف فيه أعلى مراتب المنكرات، والذي لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات، الحق فيه غريب، وأغرب منه من يعرفه، وأغرب منهما من يدعو إليه، وينصح به نفسه والناس، قد فلق بهم فالق الإصباح صبحه عن غياهب الظلمات، وأبان طريقه المستقيم من بين تلك الطرق الجائرات، وأراه بعين قلبه ما كان عليه رسول الله –

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ٥١/٤

صلى الله عليه وسلم – وأصحابه مع ما عليه أكثر الخلق من البدع المضلات، رفع له علم الهداية فشمر إليه، ووضح له الصراط المستقيم فقام، واستقام عليه، وطوبى له من وحيد على كثرة السكان، غريب على كثرة الجيران، بين أقوام رؤيتهم قذى العيون، وشجى الحلوق، وكرب النفوس، وحمى الأرواح وغم الصدور، ومرض القلوب.

وإن أنصفتهم لم تقبل طبيعتهم الإنصاف، وإن طلبته منهم فأين الثريا من يد الملتمس، قد انتكست قلوبهم، وعمي عليهم مطلوبهم، رضوا بالأماني، وابتلوا بالحظوظ، وحصلوا على الحرمان، وخاضوا بحار العلم لكن بالدعاوى الباطلة وشقاشق الهذيان، ولا والله ما ابتلت من وشله أقدامهم، ولا زكت به عقولهم وأحلامهم، ولا ابيضت به لياليهم وأشرقت بنوره أيامهم، ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذ بلت بمداده أقلامهم، أنفقوا في غير شيء نفائس الأنفاس، وأتعبوا أنفسهم وحيروا من خلفهم من الناس، ضيعوا الأصول فحرموا الوصول، وأعرضوا عن الرسالة، فوقعوا في مهامه الحيرة وبيداء الضلالة.

والمقصود أن العصمة مضمونة في ألفاظ النصوص ومعانيها في أتم بيان وأحسن تفسير، ومن رام إدراك الهدى، ودين الحق من غير مشكاتها فهو عليه عسير غير يسير.

[فصل من أدب المفتي أن يتوجه لله ليلهمه الصواب]

فصل:

[من أدب المفتي أن يتوجه لله ليلهمه الصواب] الفائدة العاشرة:

ينبغي للمفتي الموفق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي [الحالي] لا العلمي المجرد إلى ملهم الصواب، ومعلم الخير، وهادي القلوب، أن يلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدله على حكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة، فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق، وما أجدر من أمل فضل ربه أن لا يحرمه إياه، فإذا وجد من قلبه هذه الهمة فهي طلائع بشرى التوفيق، فعليه أن يوجه." (١)

"وجهه ويحدق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشد، وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة، فيستفرغ وسعه في تعرف حكم تلك النازلة منها، فإن ظفر بذلك أخبر به، وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار، والإكثار من ذكر الله، فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ١٣١/٤

رياح عاصفة تطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تضعفه.

وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولا ريب أن من وفق هذا الافتقار علما وحالا، وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من **التوفيق**، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق، فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

[فصل لا يفتي ولا يحكم إلا بما يكون عالما بالحق فيه]

[لا يفتي ولا يحكم إلا بما يكون عالما بالحق فيه] الفائدة الحادية عشرة:

إذا نزلت بالحاكم أو المفتي النازلة فإما أن يكون عالما بالحق فيها أو غالبا على ظنه بحيث قد استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته، أو لا، فإن لم يكن عالما بالحق فيها ولا غلب على ظنه لم يحل له أن يفتي، ولا يقضي بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله، ودخل تحت قوله تعالى {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: ٣٣] فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال؛ ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر.

ودخل تحت قوله تعالى {ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين} [البقرة: ١٦٨] {إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [البقرة: ١٦٩] ودخل في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - «من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه» وكان أحد القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم في النار، وإن كان قد عرف الحق في المسألة علما أو ظنا غالبا لم يحل له أن يفتي ولا يقضي بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة، وإذا كان من أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبا لأعظم الكبائر، فكيف من أفتى." (١)

"أحد أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق ما يخالف ذلك ألبتة، بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعاذهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ١٣٢/٤

من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم، كما وقع لبعض من نصب نفسه للفتوى من أهل عصرنا.

ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقف وقفا على أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟ فأجاب بصحة الوقف، وتقييد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف على أهل الذمة، فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك أن كونه من أهل الذمة ليس مانعا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب، وقولهم إن المسيح ابن الله شرط لاستحقاق الوقف، حتى إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام ولم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، فيكون حل تناوله مشروطا بتكذيب الله ورسوله، والكفر بدين الإسلام، ففرق بين كون وصف الذمة مانعا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيا؛ فغلظ طبع هذا الفتى، وكثف فهمه، وغلظ حجابه عن ذلك ولم يميز.

ونظير هذا أن يقف على الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيا أو ذا قرابة فلا يكون الغنى مانعا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغنى، فيستحق ما دام غنيا، فإذا افتقر واضطر إلى ما يقيم أوده حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا من حرم **التوفيق** وصحبه **الخذلان**، ولو رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحدا من الأئمة يفعل ذلك لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره ألبتة، وكذلك لو رأى رجلا من أمته قد وقف على من يكون من الرجال عزبا غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العزب حظا، وأعطى الآهل حظين، وأخبر أن ثلاثة على الله عونهم، فذكر منهم الناكح يريد العفاف، وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط، وقد صرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان العقود بالشروط الفاسدة، وطرد هذا أن المفتي من شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين بطل الشرط." (١)

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ٤/١٤١

"وأذكر لك من هذا مثالا وقع في زماننا، وهو أن السلطان أمر أن يلزم أهل الذمة بتغيير عمائهم، وأن تكون خلاف ألوان عمائم المسلمين، فقامت لذلك قيامتهم، وعظم عليهم، وكان في ذلك من المصالح، وإعزاز الإسلام وإذلال الكفرة ما قرت به عيون المسلمين، فألقى الشيطان على ألسنة أوليائه وإخوانه أن صوروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغبار، وهي: ما تقول السادة العلماء في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد وزي غير زيهم المألوف فحصل لهم بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاة وآذوهم غاية الأذى، فطمع بذلك في إهانتهم، والتعدي عليهم، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التميز بعلامة يعرفون بها؟ وهل في ذلك مخالفة للشرع أم لا؟ فأجابهم من منع التوفيق وصد عن الطريق بجواز ذلك، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه.

قال شيخنا: فجاءتني الفتوى، فقلت: لا تجوز إعادتهم، ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين، فذهبوا ثم غيروا الفتوى، ثم جاءوا بها في قالب آخر، فقلت: لا تجوز إعادتهم، فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر، فقلت: هي المسألة المعينة، وإن خرجت في عدة قوالب، ثم ذهب إلى السلطان وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون، فأطبق القوم على إبقائهم، ولله الحمد.

ونظائر هذه الحادثة أكثر من أن تحصى؛ فقد ألقى الشيطان على ألسنة أوليائه أن صوروا فتوى فيما يحدث ليلة النصف في الجامع، وأخرجوها في قالب حسن؛ حتى استخفوا عقل بعض المفتين، فأفتاهم بجوازه وسبحان الله، كم توصل بهذه الطرق إلى إبطال حق وإثبات باطل، وأكثر الناس إنما هم أهل ظواهر في الكلام واللباس والأفعال، وأهل النقد منهم الذين يعبرون من الظاهر إلى حقيقته وباطنه، لا يبلغون عشر معشار غيرهم ولا قريبا من ذلك، فالله المستعان.

[على المفتي ألا يفصل إلا حيث يجب التفصيل]

[على المفتي ألا يفصل إلا حيث يجب التفصيل] الفائدة التاسعة عشرة:

إذا سئل عن مسألة من الفرائض لم يجب عليه أن يذكر موانع الإرث فيقول: بشرط ألا يكون كافرا ولا رقيقا ولا قاتلا، وإذا سئل عن فريضة فيها أخ وجب عليه أن يقول: إن كان لأب فله كذا، وإن كان لأم فله كذا،

وكذلك إذا سئل عن الأعمام وبنيهم وبني الإخوة وعن الجد والجدة فلا بد من التفصيل.

والفرق بين الموضعين أن." (١)

"بل فطرة الله التي لم يفطروا ... إلا عليها الخلق والثقلان

ونظير هذا أنهم فطروا على ... اقرارهم لا شك بالديان

ولكن أولوا التعطيل منهم أصبحوا ... مرضى بداء الجهل **والخذلان**

فسألت عنهم رفقتي وأحبتي ... أصحاب جهم حزب جنكيز خان

من هؤلاء ومن يقال لهم فقد ... جاءوا بأمر مالئ الآذان

ولهم علينا صولة ما صالها ... ذو باطل بل صاحب البرهان

أو ما سمعتم قولهم وكلامهم ... مثل الصواعق ليس ذا لجبان

جاءوكم من فوقكم وأتيتم ... من تحتهم ما أنتم سيان

جاءكم بالوحي لكن جئتم ... بنحاتة الأفكار والأذهان

قالوا مشبهة ومجسمة فلا ... تسمع مقال مجسم حيوان

والعنهم لعنا كبيرا واغزهم ... بعساكر التعطيل غير جبان

واحكم بسفك دمائهم وبحبسهم ... أو لا فشردهم عن الأوطان

حذر صحابك منهم فهم أضل ... من اليهود وعابدي الصلبان

واحذر تجادلهم بقال الله أو ... قال الرسول فتنثني بهوان

أنى وهم أولى به قد أنفذوا ... فيه قوى الأذهان والأبدان

فاذا ابتليت بهم فغالطهم على التأ ... ويل للأخبار والقرآن

وكذاك غالطهم على التكذيب لل ... آحاد ذان لصحبنا أصلان

أوصى بها أشياخنا أشياخهم ... فاحفظهما بيديك والأسنان." (٢)

"إذ أخرس الإنسان أكمل حالة ... من ذا الجماد بأوضح البرهان

فجحدت أوصاف الكمال مخافة التش ... بيه والتجسيم بالإنسان

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم ٤/١٤٨

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٧

ووقعت في تشبيهه بالناقصات ... الجامدات وذا من **الخذلان**

الله أكبر هتكت أستاركم ... حتى غدوتم ضحكة الصبيان." (١)

"والله لولا الله ناصر دينه ... وكتابه بالحق والبرهان

لتخطفت أعداؤنا أرواحنا ... ولقطعت منا عرى الإيمان

أيكون حقا ذا الدليل وما اهتدى ... خير القرون له محال ذان

وفقتمو للحق إذ حرموه في ... أصل اليقين ومقعد العرفان

وهديتمونا للذي لم يهتدوا ... أبدا به وا شدة الحرمان

ودخلتم للحق من باب وما ... دخلوه واعجبا لذا **الخذلان**

وسلكتم طرق الهدى والعلم دو ... ن القوم عجبا لذا البهتان

وعرفتم الرحمن بالأجسام ... والأعراض والحركات والألوان

وهم فما عرفوه منها بل من ... الآيات وهي فغير ذي برهان

الله أكبر أنتم أو هم على ... حق وفي غي وفي خسران

دع ذا أليس انه قد أبدى لنا ... حق الأدلة وهي في القرآن

متنوعات صرفت وتظاهرت ... في كل وجه فهي ذو أفنان

معلومة للعقل أو مشهودة ... للحس أو في فطرة الرحمن

أسمعتم لدليلكم في بعضها ... خبرا أو احسستم له ببيان

أيكون أصل الدين ما تم الهدى ... إلا به وبه قوى الإيمان

وسواه ليس بموجب من لم يحط ... علما به لم ينج من كفران

والله ثم رسوله قد بينا ... طرق الهدى في غاية التبيان

فلأي شيء أعرضا عنه ولم ... نسمعه في أثر ولا قرآن." (٢)

"ولأي شيء كان أيضا خصمكم ... شيخ الوجود العالم الحراني

أعني أبا العباس ناصر سنة المخت ... ـار قامع سنة الشيطان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٤٨

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٦٧

والله لم يك ذنبه شيئا سوى ... تجريده لحقيقة الإيمان

إذ جرد التوحيد عن شرك كذا ... تجريده للوحي عن بهتان

فتجرد المقصود عن قصد له ... فلذاك لم ينصف إلى إنسان

ما منهم أحد دعا لمقالة ... غير الحديث ومقتضى الفرقان

فالقوم لم يدعو إلى غير الهدى ... ودعوتم أنتم لرأي فلان

شتان بين الدعوتين فحسبكم ... يا قوم ما بكم من الخذلان

قالوا لنا لما دعوناهم إلى ... هذا مقالة ذي هوى ملآن

ذهبت مقادير الشيوخ وحر ... ـمة العلماء بل عبرتهم العينان

وتركتم أقوالهم هدرا وما ... أصغت إليها منكم أذنان

لكن حفظنا نحن حرمتهم ولم ... نعد الذي قالوه قدر بنان

يا قوم والله العظيم كذبتم ... وأتيتم بالزور والبهتان

ونسبتم العلماء للأمر الذي ... هم منه أهل براءة وأمان

والله ما أوصاكم أن تتركوا ... قول الرسول لقولهم بلسان

كلا ولا في كتبهم هذا بلى ... بالعكس أوصاكم بلا كتمان

إذ قد أحاط العلم منهم أنهم ... ليسوا بمعصومين بالبرهان

كلا وما منهم أحاط بكل ما ... قد قاله المبعوث بالقرآن." (١)

"وأبو بأن يتمسكوا بظواهر ... النصين واعجبا من الخذلان

قول الشيوخ محرم تأويله ... إذ قصدهم للشرح والتبيان

فإذا تأولنا عليهم كان إبط ... ـالا لما راموا بلا برهان

فعلى ظواهرها تمر نصوصهم ... وعلى الحقيقة حملها لبيان

يا ليتهم أجروا نصوص الوحي ... ذا المجرى من الآثار والقرآن

بل عندهم تلك النصوص ظواهر ... لفظية عزلت عن الإيقان

لم تغن شيئا طالب الحق الذي ... يبغي الدليل ومقتضى البرهان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٩٨

فانظر إلى الأعراف ثم ليوسف ... والكهف وافهم مقتضى القرآن

وسطوا على الوحيين بالتحريف إذ ... سموه تأويلا بوضع ثان

فإذا مررت بآل عمران فهم ... ت القصد فهم موفق رباني

وعلمت أن حقيقة التأويل تب ... ين الحقيقة لا المجاز الثاني

ورأيت تأويل النفاة مخالفا ... لجميع هذا ليس يجتمعان

اللفظ هم أنشوا له معنى بذا ... ك الاصطلاح وذاك أمر دان

وأتو إلى الإلحاد في الأسماء ... والتحريف للألفاظ بالبهتان

فكسوه هذا اللفظ تلبيسا وتد ... ليسا على العميان والعوران

فاستن كل منافق ومكذب ... من باطني قرمطي جان

في ذا بسنتهم وسمى جحده ... للحق تأويلا بلا فرقان

وأتى بتأويل كتأويلاتهم ... شبرا بشبر صارخا بأذان." (١)

"وكلاكما للنص فهو مخالف ... هذا وبينكما من الفرقان

هم خالفوا نصا لنص مثله ... لم يفهموا التوفيق بالإحسان

لكنكم خالفتم المنصوص ... للشبه التي هي فكرة الأذهان

فلأي شيء أنتم خير وأقرب ... منهم للحق والإيمان

هم قدموا المفهوم من لفظ ... الكتاب على الحديث الموجب التبيان

لكنكم قدمتمو رأي الرجا ... ل عليهما أفأنتما عدلان

أم هم إلى الإسلام أقرب منكم ... لاح الصباح لمن له عينان

والله يحكم بينكم يوم الجزا ... بالعدل والإنصاف والميزان

هذا ونحن فمنهم بل منكم ... برآء إلى من هدى وبيان

فاسمع إذا قول الخوارج ثم قو ... ل خصومنا واحكم بلا ميلان

من ذا الذي منا إذا أشباههم ... إن كنت ذا علم وذا عرفان

قال الخوارج للرسول اعدل فلم ... عدل وما ذي قسمة الديان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/١٣٠

وكذلك الجهمي قال نظير ذا ... لكنه قد زاد في الطغيان

قال الصواب بأنه استولى فلم ... قلت استوى وعدلت عن تبيان

وكذلك ينزل أمره سبحانه ... لم قلت ينزل صاحب الغفران

ماذا بعدل في العبارة وهي مو ... همة التحرك وانتقال مكان

وكذاك قلت بأن ربك في السما ... أوهمت حيز خالق الأكوان

كان الصواب بأن يقال بأنه ... فوق السما سلطان ذي السلطان." (١)

"فإذا رأيت الثور فيه تقارن ... الجيمات بالتثليث شر قران

دلت على أن النحوس جميعها ... سهم الذي قد فاز **بالخذلان**

جبر وإرجاء وجيم تجهم ... فتأمل المجموع في الميزان

فاحكم بطالعها لمن حصلت له ... بخلاصة من ربقة الإيمان

فاحمل على الأقدار ذنبك كله ... حمل الجذوع على قوى الجدران

وافتح لنفسك باب عذر إذ ترى ... الأفعال فعل الخالق الديان

فالجبر يشهدك الذنوب جميعها ... مثل ارتعاش الشيخ ذي الرجفان

لا فاعل أبدا ولا هو قادر ... كالميت أدرج داخل الأكفان

والأمر والنهي اللذان توجها ... فهما كأمر العبد بالطيران

وكأمره الأعمى بنقط مصاحف ... أو شكلها حذرا من الألحان

وماذا ارتفعت دريجة أخرى ... رأيت الكل طاعات بلا عصيان

إن قيل قد خالفت أمر الشرع قل ... لكن أطعت إرادة الرحمن

ومطيع أمر الله مثل مطيع ... ما يقضي به وكلاهما عبدان

عبد الأوامر مثل عبد مشيئة ... عند المحقق ليس يفترقان

فانظر إلى ما قادت الجيم الذي ... للجبر من كفر ومن بهتان

وكذلك الإرجاء حين تقر ... بالمعبود تصبح كامل الإيمان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/١٤٠

فارم المصاحف في الحشوش ... وخرب البيت العتيق وجد في العصيان

واقتل إذا ما اسطعت كل موحد ... وتمسحن بالقس والصلبان." (١)

"آراؤهم ريح المقاعد أين تلك ... الريح من روح ومن ريحان

قالوا وأنت رقيبنا وشهيدنا ... من فوق عرشك يا عظيم الشان

إنا أبينا أن ندين ببدعة ... وضلالة أو إفك ذي بهتان

لكن بما قد قلته أو قاله ... من قد أتانا عنك بالفرقان

وكذاك فارقناهم حين احتيا ... ج الناس للأنصار والأعوان

كيلا تصير مصيرهم في يومنا ... هذا ونطمع منك بالغفران

فمن الذي منا أحق بأمنه ... فاختر لنفسك يا أخا العرفان

لا بد نلقاه نحن وأنتم ... في موقف العرض العظيم الشان

وهناك يسألنا جميعا ربنا ... ولديه قطعا نحن مختصمان

فنقول قلت كذا وقال نبينا ... أيضا كذا فإمامنا الوحيان

فافعل بنا ما أنت أهل بعد ذا ... نحن العبيد وأنت ذو الإحسان

أفتقدرون على جواب مثل ذا ... أم تعدلون على جواب ثان

ما فيه قال الله قال رسوله ... بل فيه قلنا مثل قول فلان

وهو الذي أدت إليه عقولنا ... لما وزنا الوحي بالميزان

إن كان ذلكم الجواب مخلصا ... فامضوا عليه يا ذوي العرفان

تالله ما بعد البيان لمنصف ... إلا العناد ومركب الخذلان." (٢)

"فغدوتم أسرى لهم بحبالهم ... أيديكم شدت إلى الأذقان

حملوا عليكم كالسباع استقبلت ... حمرا معقرة ذوي أرسان

صالوا علكم بالذي صلتم به ... أنتم علينا صولة الفرسان

لولا تحيزكم إلينا كنتم ... وسط العرين ممزقي اللحمان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/١٦٦

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/١٧٠

لكنا بنا استنصرتم وبقولنا ... صلتم عليهم صولة الشجعان

واليتم الإثبات إذ صلتم به ... وعزلتم التعطيل عزل مهان

وأتيتم تغزوننا بسرية ... من عسكر التعطيل والكفران

من ذا بحق الله أجهل منكم ... وأحقنا بالجهل والعدوان

تالله ما يدري الفتى بمصابه ... والقلب تحت الختم **والخذلان**." (١)

"فصل: في بهت أهل الشرك والتعطيل في رميهم أهل التوحيد والإثبات بتنقيص الرسول

قالوا تنقصتم من رسول الله وا ... عجبا لهذا البغي والبهتان

عزلوه أن يحتج قط بقوله ... في العلم بالله العظيم الشان

عزلوا كلام الله ثم رسوله ... عن ذاك عزلا ليس ذا كتمان

جعلوا حقيقته وظاهره هو ال ... كفر الصريح البين البطلان

قالوا وظاهره هو التشبيه والت ... جسيم حاشا ظاهر القرآن

من قال في الرحمن ما دلت علي ... ه حقيقة الأخبار والفرقان

فهو المشبه والممثل والمجـ ... سم عابد الأوثان لا الرحمن

تالله قد مسخت عقولكم فلي ... س وراء هذا قط من نقصان

ورميتم حزب الرسول وجنده ... بمصابكم يا فرقة البهتان

وجعلتم التنقيص عين وفاقه ... إذ لم يوافق ذاك رأي فلان

أنتم تنقصتم إله العرش ... والقرآن والمبعوث بالقرآن

نزهتموه عن صفات كماله ... وعن الكلام وفوق كل مكان

وجعلتم ذا كله التشبيه والت ... مثيل والتجسيم ذا البطلان

وكلامكم فيه الشفاء وغاية ال ... تحقيق يا عجبا لذا **الخذلان**." (٢)

"أفليس في هذا بلاغ مسافر ... يبغي الإله وجنة الحيوان

لولا التناوش بين هذا الخلق ما ... كان التفرق قط في الحسبان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٢٩

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٤٨

فالرب رب واحد وكتابه ... حق وفهم الحق منه دان

ورسوله قد أوضح الحق المبين ... بغاية الإيضاح والتبيان

ما ثم منه فوق كل نصيحة ... يحتاج سامعها الى تبيان

والنصح منه فوق كل نصيحة ... والعلم مأخوذ عن الرحمن

فلأي شيء يعدل الباغي الهدى ... عن قوله لولا عمى **الخذلان**

فالنقل عنه مصدق والقول من ... ذي عصمة ما عندنا قولان

والعكس عند سواه في الأمرين يا ... من يهتدي هل يستوي النقلان

تالله قد لاح الصباح لمن له ... عينان نحو الفجر ناظرتان

وأخو العماية في عمايته يقو ... ل الليل بعد أيستوي الرجلان

تالله قد رفعت لك الأعلام إن ... كنت المشمر نلت دار أمان

وإذا جنبت وكنت كسلانا فما ... حرم الوصول إليه غير جبان

فاقدم وعد بالوصل نفسك واه ... جر المقطوع منه قاطع الإنسان

عن نيل مقصده فذاك عدوه ... ولو أنه منه القريب الداني." (١)

"فصل: في تعين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته كما كانت فرضا من الأمصار إلى بلدته عليه السلام

يا قوم فرض الهجرتين بحاله ... والله لم ينسخ إلى ذا الآن

فالهجر الأول إلى الرحمن بالـ ... إخلاص في سر وفي إعلان

حتى يكون القصد وجه الله بالـ ... أقوال والأعمال والإيمان

ويكون كل الدين للرحمن ما ... لسواه شيء فيه من إنسان

والحب والبغض اللذان هما لـ ... كل ولاية وعداوة أصلان

لله أيضا هكذا الإعطاء والمنـ ... ع اللذان عليهما يقفان

والله هذا شطر دين الله ... والتحكيم للمختار شطر ثان

وكلاهما الإحسان لمن يتقبل الر ... حمن من سعي بلا إحسان

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٥٦

والهجرة الأخرى إلى المبعوث بال ... إسلام والإيمان والإحسان

أترون هذي هجرة الأبدان لا ... والله بل هي هجرة الإيمان

قطع المسافة بالقلوب إليه في ... درك الأصول مع الفروع وذان

أبدا إليه حكمها لا غيره ... فالحكم ما حكمت به النصان

يا هجرة طالت مسافتها على ... من خص بالحرمان **والخذلان**

يا هجرة طالت مسافتها على ... كسلان منخوب الفؤاد جبان." (١)

"والكل مخلوق ولست بقائل ... أصلا ولا حرفا من القرآن

إن ذاك إلا قول مخلوق وهل ... هو جبريل أو الرسول فذان

قولان مشهوران قد قالتهما ... أشياخهم يا محنة القرآن

لو داسه رجل لقالوا لم يطأ ... إلا المداد وكاغد الإنسان

يا رب زالت حرمة القرآن من ... تلك القلوب وحرمة الإيمان

وجرى على الأفواه منهم قولهم ... ما بيننا لله من قرآن

ما بيننا إلا الحكاية عن ... ه والتعبير ذاك عبارة بلسان

هذا وما التالون عمالا به ... إذ هم قد استغنوا بقول فلان

إن كان قد جاز الحناجر منهم ... فبقدر ما عقلوا من القرآن

والباحثون فقدموا رأي الرجا ... ل عليه تصريحا بلا كتمان

عزلوه إذ ولوا سواه وكان ذا ... ك العزل قائدهم إلى **الخذلان**

قالوا ولم يحصل لنا منه يقي ... ن فهو معزول عن الإيقان

إن اليقين قواطع عقلية ... ميزانها هو منطق اليونان

هذا دليل الرفع منه وهذه ... أعلامه في آخر الأزمان

يا رب من أهلوه حقا كي يرى ... أقدامهم منا على الأذقان

أهلوه من لا يرتضي منه بدي ... لا فهو كافيهم بلا نقصان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٨٤

وهو الدليل لهم وهاديهم إلى الـ ... إيمان والإيقان والعرفان

هو موصل لهم إلى درك اليقيـ ... ـن حقيقة وقواطع البرهان." (١)

"يسمو إلى ذاك الرفيق الأرفع الأ ... على وخلى اللعب للصبيان

والناس كلهم فصبيان وإن ... بلغوا سوى الأفراد والوحدان

وإذا ما رأى ما يشتهيه قال مو ... عدك الجنان وجد في الأثمان

وإذا أبت إلا الجماح أعاضها ... بالعلم بعد حقائق الإيمان

ويرى من الخسران بيع الدائم الـ ... باقي به يا ذلة الخسران

ويرى مصارع أهلها من حوله ... وقلوبهم كمراجل النيران

حسراتها هن الوقود فإن خبت ... زادت سعيرا بالوقود الثاني

جاؤوا فرادى مثل ما خلقوا بلا ... مال ولا أهل ولا إخوان

ما معهم شيء سوى الأعمال فهـ ... ـي متاجر للنار أو لجنان

تسعى بهم أعمالهم سوقا إلى الد ... ارين سوق الخيل بالركبان

صبروا قليلا فاستراحوا دائما ... يا عزة **التوفيق** للإنسان

حمدوا التقى عند الممات كذا السرى ... عند الصباح فحبذا الحمدان

وحدت بهم عزماتهم نحو العلى ... وسروا فما نزلوا إلى نعمان

باعوا الذي يفنى من الخزف الخسيـ ... ـس بدائم من خالص العقيان

رفعت لهم في السير أعلام السعا ... دة والهدى يا ذلة الحيران

فتسابق الأقوام وابتدروا لها ... كتسابق الفرسان يوم رهان

وأخو الهوينى في الديار مخلف ... مع شكله يا خيبة الكسلان." (٢)

"لكانت ائمة تدعوا الى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هومشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذي خاضوا او كالفريق الذي خاضوا فإن الذي يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين لكن لا

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٩٢

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٦٠

يجرى على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاؤوا وإنا يجيء غالبا في اسم الجمع كالحزب والفريق او حيث لا يذكر الموصوف وان كان جمعا كقول الشاعر

وإن الذي جاءت تقبح دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

او حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى {والذي جاء بالصدق وصدق به} ثم قال {أولئك هم المتقون} ونظيره الاية التي نحن منها وهي قوله {وخضتم كالذي خاضوا} او كان المعنى على القول الاخر وخضتم خوضا كالخوض الذي خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذي ضرب واحسن كالذي احسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفا وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذمه سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات واخبر ان من كانت هذه حالته فقد حبط عمله في الدنيا والاخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول اهل النار لاهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين فذكروا الاصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين وايثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوي الحاجات فهذان الاصلان هماما هما والله ولي التوفيق

فصل والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم

من هذا وهذا فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فالله وحده غايته وامره وشرعه وسيلته وطريقته لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم انه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغي وسليم من الباطل وكل الاقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها وحقيقته انه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفا وطمعا ورجاء ففنى بحبه عن حب ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وسلم لامره." (١)

"الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون الوجه الثالث والاربعون ما في الصحيحين ايضا من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه ان رسول الله قال لعلي رضى الله عنه لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة اهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/ ٤١

بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم وهي خيارها واشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس الوجه الرابع والاربعون ما روى مسلم في صحيحيه من حديث ابي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا اخبر ان المتسبب الى الهدى بدعوته له مثل اجر من اهتدى به والمتسبب الى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لان هذا بذل قدرته في هداية الناس وهذا بذل قدرته في ضلالتهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور في غير هذا الموضع قال تعالى ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يزرون وقال تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وهذا يدل على ان من دعا الامة إلى غير سنة رسول الله فهوعدوه حقا لانه قطع وصول اجر من اهتدى بسنته اليه وهذا من اعظم معاداته نعوذ بالله من **الخذلان** الوجه الخامس والاربعون ما خرجا في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها فاخبر انه لا ينبغي لاحد ان يحسد احدا يعني حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير ان يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدة من هاتين الخصلتين وهي الاحسان الى الناس بعلمه او بماله وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به الوجه السادس والاربعون قال الترمذي حدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن حميد حدثنا القاسم عن ابي امامة الباهلي قال ذكر لرسول الله رجلان احدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله فصل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم قال رسول الله ان الله وملائكته واهل السموات والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير قال الترمذي هذا حديث حسن غريب سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث الخزاعي قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيرا في ملكوت السموات وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الامة رجلان فرجل اعطاه الله علما." (١)

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٦٢/١

"خاصة ثم ان لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه ومعلوم ان وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع وصول اثر الهداية اليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاما فحاجاته إلى هداية الله له مقرونة بانفاسه وهي اعظم حاجة للعبد وذكر النبي في الدعاء العظيم القدر من اوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فان فطر السموات والارض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والارض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء عليم جدير ان يطلب منه عبده ان يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه ان يعطى عبده شيئا من ماله والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته ان يغفر لعبده ويعفوه ان يعفو عنه وبرحمته ان يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا والله اعلم لان المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الاملاك قد جعل الله تعالى على ايديهم اسباب حياة العباد اما جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الانبياء وهو سبب حياة الدنيا والاخرة واما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء واما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيى الله الموتى بنفخته فإذا هم قيام لرب العالمين والهداية لها اربع مراتب وهي مذكورة في القرآن المرتبة الاولى الهداية العامة وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والادمي لمصالحه التي بها قام امره قال الله تعالى سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى فذكر امورا اربعة الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوى خلقه واتقنه وأحكمه ثم قدر له اسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه اليها والهداية تعليم فذكر انه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة انزلها على رسوله وقد تقدم ذلك وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون انه قال لموسى فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه المرتبة اسبق مراتب الهداية وأعمها المرتبة الثانية هدايةُ البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهتداء التام قال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى وقال تعالى وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وهذه المرتبة اخص من الاولى وأعم من الثانية وهي هدى التوفيق والالهام قال الله تعالى والله

يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم قال تعالى." (١)

"إنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء مع قوله وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم فاثبت هداية الدعوة والبيان ونفي هداية التوفيق والامام وقال النبي في نشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وقال تعالى إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل أي من يضله الله لايهتدي أبدا وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء واما الثانية فشرط لاموجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل المرتبة الرابعة الهداية في الاخرة إلى طريق الجنة والنار قال تعالى احشرواالذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم واما قول اهل الجنة الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله فيحتمل ان يكونوا ارادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا ارادوا الهداية في الدنيا التي اوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وانهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان احسن وابلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقا لحاله فقال تعالى قل اندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين الوجه السادس والسبعون ان فضيلة الشيء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة اليه وعدم الاستغناء عن وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوبا ملائما فادراكه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وافضاله إلى اجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقة فإذا كان في نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلقاته ومعلوم ان هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فإنه أعم شيء نفعا واكثره وادومه والحاجة اليه فوق الحاجة إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى التنفس إذ غاية مايتصور من فقدهما فقد حياة الجسم وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفة عين ولهذا إذا فقد من الشخص كان شرا من الحمير بل كان شرا من الدواب عند الله ولا شيء انقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلأنه كمال في نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٨٤/١

للنفوس فان الجهل مرض ونقص وهو في غاية الايذاء والايلام للنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه وما لجرح ميت إيلام فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها واتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم في نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات." (١)

"كالنصارى والمشركين وهذه الاقوال الثلاثة في مذهب الامام احمد وغيره وعلى هذا فانما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الاسلام لان مجرد الاقرار والاخبار بصحة رسالته لا يوجب الاسلام إلا ان يلزم طاعته ومتابعته وإلا فلو قال انا اعلم انه نبي ولكن لا اتبعه ولا ادين بدينه كان من اكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وائمة السنة ان الايمان لا يكفي في قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم ان الايمان هو مجرد معرفة القلب واقراره وفيما تقدم كفاية في إبطال هذه المقالة ومن قال ان الايمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وابغضه وقاتله لزمه ان يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لامحيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحي العاقل من قوله كقول بعضهم إن إبليس كان مستهزئا ولم يكن يقر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالقه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها ونصرة المقالات وتقليد اربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من **الخذلان** قالوا وقد بين القرآن ان الكفر اقسام احدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الاسلاف وهو كفر أكثر الاتباع والعوام الثاني كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار او رياسة سلطانية او من له ماكل واموال في قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله ومأكله فيؤثر الكفر على الايمان عمدا الثالث كفر إعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الاول ويجعلون الثاني والثالث كفرا لدلالاته على الاول لا لأنه في ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ اهل الكلام فيما قالوه وعلم ان عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٨٥/١

انبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن مملوء من الاخبار عن المشركين عباد الاصنام انهم كانوا يقرون بالله وانه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الارض وما فيها له وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وانه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر وانزل المطر واخرج النبات والقرآن منادعليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم اليه رسله." (١)

"وتخصص به نسب اليه دون سائر من علم علما قال الواحدي فالرباني على قوله منسوب الى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أي يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى وقال المبرد الرباني الذي يرب العلم ويرب الناس به أي يعلمهم ويصلحهم وعلى قوله فالرباني من رب يرب ربا أي يربيه فهو منسوب الى التربية ويربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله يربي الناس به كما يربى الاطفال اولياؤهم وليس هذا من قوله {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير} فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل إنه من الربة بكسر الراء وهي الجماعة قال الجوهري الربي واحد الربيين وهم الالوف من الناس قال تعالى {وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم} ولا يوصف العالم بكونه ربانيا حتى يكون عاملا بعمله معلما له فهذا قسم والقسم الثاني متعلم على سبيل نجاة أي قاصدا بعلمه النجاة وهو المخلص في تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة الا بهذه الامور الثلاثة فإنه إن تعلم ما يضره ولاينفعه لم يكن على سبيل نجاة وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل اي على الطريق التي تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقا بمتعلم إلا على وجه التضمين أي مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا في الدرجة الثانية وليس ممن تعلمه ليمارى به السفهاء او يجارى به العلماء او يصرف وجوه الناس اليه فإن هذا من اهل النار كما جاء في الحديث وثبته ابو نعيم ايضا قوله من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة قال وثبت ايضا قوله اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم واصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب واعينها فشبه همج الناس به والهمج ايضا مصدر قال الراجز:

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/٩٤

قد هلكت جارتنا من الهمج ... وان تجع تأكل عتودا او ثلج والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير في أمر المعيشة وقولهم همج هامج مثل ليل لايل والرعاع من النساء الحمقى الذين لايعتد بهم وقوله اتباع كل ناعق أي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم الى هدى او الى ضلال فانهم لا علم لهم بالذي يدعون اليه احق هو ام باطل فهم مستجيبون لدعوته وهؤلاء من اضر الخلق على الاديان فإنهم الاكثرون عددا الاقلون." (١)

"استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذان الاصلان هما قطب السعادة اعني العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الاول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال {إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى} وقال تعالى في سورة التكوير {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين} فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى احسن من هذا وهو الاشبه بمراد على رضى الله عنه وهو ان هؤلاء ليسوا من اهل البصائر الذين استضاؤا بنور العلم ولا لجئوا الى عالم مستبصر فقلدوه ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل اما ان يكون بصيرا او اعمى متمسكا ببصير يقوده او اعمى يسير بلا قائد وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال يعني ان العلم يحفظ صاحبه ويحميه من مواردالهلكة ومواقع العطب فإن الانسان لا يلقى نفسه في هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاما مسموما فالعالم بالسم وضره يحرسه علمه ويمتنع به من اكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الامراض والاسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبامره وبعدوه ومكائده ومداخله على العبد يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته والقاء الشك والريب والكفر في قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والايمان فيرجع خاسئا خائبا واعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين العلم والايمان فهذا السبب الذي من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فمتى وكله الى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه قال بعض العارفين اجمع العارفون على ان **التوفيق** ان لا يكلك الله الى نفسك واجمعوا على ان **الخذلان** ان يخلى بينك وبين نفسك وقوله العلم يزكوا على الانفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل علمه للناس وانفق منه تفجرت بنابيعه فازداد كثرة وقوة وظهورا فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٢٦/١

له به علم ما لم يكن عنده وربما تكون المسئلة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الاشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له واضاءت وانفتح له منها علوم اخر وايضا فإن الجزاء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بان كلمة من جهالته كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي انه قال في حديث طويل وان الله قال لي انفق انفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم اما بلفظه وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه ولزكاء العلم ونحوه طريقان احدهما تعليمه والثاني العمل به فإن العمل به ايضا ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه ابوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافي قول النبي ما نقصت صدقة من مال فإن المال إذا تصدقت منه وانفقت ذهب ذلك القدر." (١)

"تؤثر فيه البداآت ويستفز باوائل الامور بخلاف الثابت التام العاقل فإنه لا تستفزه البداآت ولا تزعجه وتقلقله فان الباطل له دهشة وروعة في اوله فإذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالعلجة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل امره بعلم وجزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجله وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الاول حمدامره ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهي الفوت فإنه لا يخاف من التثبيت الا الفوت فإذا اقترن به العزم والحزم تم امره ولهذا في الدعاء الذي وراه الامام احمد والنسائي عن النبي اللهم اني اسالك الثبات في الامر والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما اتى العبد الا من تضييعهما او تضييع احدهما فما اتى احد الا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد مواتاتها فإذا حصل الثبات اولا والعزيمة ثانيا افلح كل الفلاح والله ولي التوفيق الصنف الثالث رجل نهمته في نيل لذته فهو منقاد لداعي الشهوة اين كان ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ولا ولا ينال العلم الا بهجر اللذات وتطليق الراحة قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم وقال إبراهيم الحربي اجمع عقلاء كل امة ان النعيم لا يدرك بالنعم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الانبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو سودت وجهك بالمداد فان العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته الى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم ابدا فإذا صارت شهوته

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٢٨/١

في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له ان يكون من جملة اعلة ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الاكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الانسان فيها الحيوان ولذة الشروالظلم والفساد والعلوى في الارض شيطانية يشارك صاحبها فيها ابليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمقارفة الروح البدن الا لذة العلم والايمان فإنها تكمل بعد المفارقة لان البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فإذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم والمقيم فهو في العلم والايمان اللذين بهما كمال سعادة الانسان وايضا فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت اعقبت هما وغما وألا يحتاج صاحبها ان يداويه بمثلها دفعا للألمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها اليه لكن يحمله عليه مدواة ذلك الغم والهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الايمان بالله ومحبته والاقبال عليه والتنعم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية." (١)

"وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين وهذا يدل على انه لا يزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن وفي صحيح ابي حاتم من حديث الخولاني قال قال رسول الله لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته وغرس الله هم اهل العلم والعمل فلو خلت الارض من عالم خلت من غرس الله ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون في حديث على إما ظاهرا مشهورا وإما خفيا مستورا وظنوا ان ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر وكلن هذه الزيادة من وضع بعض كذا بيهم والحديث مشهور عن علي لم يقل احد عنه هذه المقالة الا كذاب وحجج اله لا تقوم بخفي مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به في شيء اصلا فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدي به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأي حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولا سيما على أصول القائلين به فإن الذي دعاهم الى ذلك انهم قالوا لا بد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله فيالله العجب أي لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم وأي حجة اثبتم للخلق على ربهم باصلكم الباطل فإن هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط الى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف مالا يطاق ابلغ من هذا وهل في العذر والحجة ابلغ من هذا فالذي فررتم منه وقعتم في شر منه وكنتم في ذلك كما قيل:

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن ابي الله الا ان يفضح من تنقص بالصحابة الاخيار وبسادة هذه الامة وان يرى الناس عورته ويغريه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٤٢/١

بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد احسن القائل:

ما آن للسرداب ان يلد الذي ... حملتموه بزعمكم ما آنا فعلى عقولكم العفاء فانكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت اعظم ضياع فانتم ابطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من امير المؤمنين رضى الله عنه بان حامل حجج الله في الارض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها الى عباده مثله رضى الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم الى يوم القيامة وقوله لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أي لكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم والا فالبطلان محال عليها لانها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان فإن قيل فما الفرق بين الحجج والبينات قيل الفرق بينهما ان الحجج هي الادلة العلمية التي يعقلها القلب وتسمع بالاذن قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي وتلك حجتنا آتيناهم إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء قال ابن زيد بعلم الحجة وقال تعالى فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقال." (١)

"ونقلها من بلد الى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم

فصل ثم تأمل احوال هذه العقاقير والادوية التي يخرجها الله من

الارض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الاورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده إذا اعوزه الانسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب إذا تراكمت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الادوية والاغذية وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطي اللون إشراقا ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها الى أضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن اعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان الى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/١٤٤

البهيم وبأي عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من **التوفيق** لولا انعام الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهب ان الانسان فطن لهذه الاشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذي فطن لها البهائم في اشياء كثيرة منها مالا يهتدي اليها الانسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذي جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول اذا اعتل شيئا من النبات فتعود صحته وقد ذكر الاطباء في مبادئ الطب في كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من الهمها ذلك ومن ارشدها اليه ومن دلها عليه افيجوز ان يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذي لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور الذي لا تنبغي العبادة الا له وإنه لو كان معه في سمواته وارضه اله سواه لفسدت السموات والارض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ولعلك ان تقول ما حكمة هذا النبات المبثوث في الصحارى." (١)

"به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا فأين هذا من مقام من اداء علمه الى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها الى انفسها فحلت بها عساكر **الخذلان** من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤل تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلام الاطفال لعلك لا تظفر بها في أكثر الكتب فارجع الان الى نفسك وفكر في هذه الافعال الطبيعية التي جعلت في الانسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الاكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والاعضاء واجمام القوى وعودها الى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وقضاءالوطر وتمام اللذة فتجد هذه الدواعي تستحث الانسان لهذه الامور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الانسان إنما يستدعي هذه المستحثات إذا اراد لأوشك ان يشتغل عنها بماي يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى الى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه الى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء اهلكه فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان جعلت فيه بواعث

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/٢٣٣

ومستحثات تؤزه ازا الى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الافعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه ثم انظر الى ما يعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء فتأخذه ويورده على الاعضاء بحسب قبولها ثم اعطى القوة الممسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه ثم اعطى القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه عن المعدة ثم اعطى القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه فمن اعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك اليها ومن جعلها خادما لك ومن اعطاها افعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الاخر ومن الف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا فمن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو الى سائر اجزاء البدن وأعماقه ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو انحبس يخرج اولا فأولا فيستريح البدن فيخف." (١)

"الخير والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين لاهله والشدة على اهل الباطل والغلظة عليهم والاصلاح بين الناس والسعي في إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الاهانة وتنزيل الناس منازلهم وأعطاء كل ذي حق حقه وأخذ ما سهل عليهم وطوعت به انفسهم من الاعمال والاموال والاخلاق ولارشاد ضالهم وتعليم جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريبهم وبعيدهم في الحق فأقربهم اليه اولاهم بالحق وان كان بعيدا وابعدهم عنه ابعدهم من الحق وان كان حبيبا قريبا الى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما اودع في فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وان نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب اليه وإيثاره على ما سواه واثبت في الفطر علمها بقبيح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الامر بما اثبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما اثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكلمة مطابقة التفصيل بجملته وقامت وشواهد دينه في الفطرة تنادي للايمان حي على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والايات دياجي ظلم الاباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٢٧٦/١

والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح

فصل وكذلك اعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر

حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الابنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الادوية وصنعة الاطعمة ومعرفة ضروب الحيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم ثم منعهم سبحانه علم ما سوى ذلك مما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وامواج البحر وذرات الرمال ومساقط الاوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى وما في لجج البحار واقطار العالم وما يكنه الناس في صدورهم وما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد الى سائر ما عزب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من **التوفيق** حظه ولم يحصل الا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر امره وجرت سنة الله وحكمته ان هذا الضرب من الناس اجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صوابا فترى عند من لا يرفعون به رأسا من الحكم والعلم الحق النافع مالا يخطر ببالهم اصلا وذلك من حكمة الله في خلقه وهوالعزيز الحكيم ولا يعرف هذا الا من اطلع على ما عند القوم من انواع الخيال." (١)

"عليه وامورا يتوب عليه من اجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو فإن هذه الامور متعلقة بالغير ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها وهذا باب اوسع من ان يدرك واللبيب يكتفي منه باليسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد

وان كان اثل الواد يجمع بيننا ... فغير خفي شيجه من خزامه فتأمل ظهور هذين الاسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليقة ترى وما يعجب العقول وتأمل آثارهما حق التأمل في اعظم مجامع الخليقة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما كان له من قيام اصلا فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فإما متصلا بنشاته الثانية إما مختصا بهذه النشأة

فصل ومنه انه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته

وجريان حكمته وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة مالكه وسيده وأنه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٢٨٢/١

عبده وابن عبده وابن امته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه

فصل ومنها انه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته وانه

كالوليد الطفل في حاجته الى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت الشياطين ايديها اليه من كل جان بتريد تمزيق حاله كله إفاسد شأنه كله وإن مولاه وسيده إن وكله الى نفسه وكله الى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى اليه من شراك نعله فقد أجمع العلماء بالله على ان **التوفيق** ان لا يكل الله العبد الى نفسه واجمعوا على ان **الخذلان** ان يخلى بينه وبين نفسه

فصل ومنها انه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من اعظم أسباب

السعادة له من استعاذته واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن انواع الدعاء والتضرع والابتهال والانابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وانواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ومنها مالا تدركه العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الاسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد ان كان نائيا عنه وهذا الذي أثمر له ان الله يحب التوابين وهو ثمرة لله افرح بتوبة عبده واسرار هذا الوجه يضيق عنها." (١)

"كنا نلعب به فضربني إلى الأرض وقعد على صدري وقال والله أني قاتلك ولا يقتلك أحد غيري أن شاء الله وأنا من استثنائه بالمشيئة خائف فذهب به منجمه إلى ما قدره المنجمون له من قوة نجمه وأن هذا وهم منه وحكم النجوم يقضي على وهمه فحقق الله سبحانه ذلك الوهم وأبطل حكم الطالع والنجم ومن ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء بغداد سنة ست وأربعين ومائة أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه:

يهنيك منها بلدة تقضي لنا ... أن الممات بها عليك حرام

لما قضت أحكام طالع وقتها ... أن لا يرى فيها يموت أمام

وأكد هذا الهذيان في نفوس العوام موت المنصور بطريق مكة ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي بعسا باذ ثم الرشيد بطوس فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار انخرم الأصل الباطل الذي أصلوه وظهر الزور الذي لفقوه حتى رجع إلى الحق الأول فقال:

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/ ٢٨٨

كذب المنجم في مقالته التي ... نطقت به كذبا على بغدان

قتل الأمين بها لعمري يقتضي ... تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغير هؤلاء ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين في قصة عمورية أن المعتصم أن خرج لفتحها كانت عليه الدائرة وأن النصر لعدوه فرزقه الله **التوفيق** في مخالفتهم ففتح الله على يديه ما كان مغلقا وأصبح كذبهم وخرصهم بعد أن كان موهوما عند العامة محققا ففتح عمورية وما والاها من كل حصن وقلعة وكان ذلك من أعظم الفتوحات المعدودة وفي ذلك الفتح قام أبو تمام الطائي منشدا له على رؤس الأشهاد

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف منها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عجائبا زعموا الأيام تجعله ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما ... كان منقلبا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب

لو ثبتت قط أمرا قبل موقعه ... لم يخف ما حل بالأوثان والصلب." (١)

"وعمره ورزقه وشقاوته وسعادته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه بل ونزول الأمطار واختلاف أنواع الشجر والنبات في الشكل واللون والطعوم والروائح والمقادير بل انقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه والبحري وأنواعه والبرى وأقسامه وأشكال هذه الحيوانات واختلاف صورها وأنواعها وأفعالها وأخلاقها ومنافعها بل وتكون المعادن المنطبعة كالحديد والرصاص والنحاس والذهب والفضة بل وغير المنطبعة كالملح والقارو والزرنيخ والنفط والزئبق بل العداوة الواقعة بين الذئاب والغنم والحيات والسباع وبني آدم والصداقة والعداوة بين أفراد النوع الواحد سيما بين ذكوره وإناثه وبالجملة فالأرزاق والآجال والعز والذل والرفعة والخفض والغناء والفقر والغناء والفقر والإحياء والإماتة والمنع والإعطاء والضر النفع والهدى

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٣٦/٢

والضلال والتوفيق والخذلان وجميع ما في العالم والأشخاص وأفعالها وقواها وصفاتها وهيأتها والمعطى له هذه واتصالاتها وانفصالاتها واتصالاتها بنقط وانفصالاتها عن نقط ومقارنتها ومفارقتها ومساقتها ومباينتها فهي المعطية لهذا كله المدبرة الفاعلة فهي الآلهة والأرباب على الحقيقة وما تحتها عبيد خاضعون لها ناظرون إليها فهذا كما أنه الكفر الذي خرجوا به عن جميع الملل وعن جملة شرائع الأنبياء ولم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل ألا بالتستر بهم ومنافقتهم والتزي بزيهم ظاهرا وإلا فقتل هؤلاء من الأمر الضروري في كل ملة لأنهم سوسها وأعداؤها فهو من الهذيان الذي أضحكوا به العقلاء على عقولهم حتى رد عليهم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وغيرهما من عقلاء الفلاسفة وسخروا منهم واستضعفوا عقولهم ونسبوهم إلى الزرق والزينجة والتلبيس وقد رد عليهم أفضل المتأخرين من فلاسفة الإسلام أبو البركات البغدادي في كتاب التعبير له فقال وأما أحكام النجوم فإنه لا يتعلق به منه أكثر من قولهم بغير دليل الحر الكواكب وبردها ورطوبتها ويبوستها واعتدالها كما يقولون بأن زجل منها بارد يابس والمريخ حار يابس والمشتري معتدل والاعتدال خير والافراط شر وينتجون من ذلك أن الخير يوجب سعادة والشر يوجب منحسة وما جانس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجه مقدماتهم في أنظارهم وإنما الذي أنتجته هو أن السماء والسماويات فعالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتتحرك حوله فعلا على الاطلاق لم يحصل له من العلم الطبيعي حد ولا تقدير والقائلون به ادعوا حصوله من التوقيف والتجربة والقياس منهما كما ادعى أهل الكيمياء وإلا فمتى يقول صاحب العلم الطبيعي بحسب أنظاره التي سبقت أن المشتري سعيد والمريخ نحسن والمريخ حار يابس وزحل بارد يابس والحار والبارد من الملموسات وما دله على هذا المس كما يستدل بلمس الملموسات فإن ذلك ما ظهر للحس كما ظهر في الشمس حيث تسخن الارض بشعاعها وإن كان في السماء بيان شيء من طبائع الاضداد فالأولى أن تكون كلها حارة لأن كواكبها كلها منيرة ومتى." (١)

"الثاني: أخذها من اسم الله، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه الرحمن فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم الرحمن حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٦٦/٢

الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر يوم الدين فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥] فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته وهي شكره وحبه وخشيته فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرا به.

الموضع السادس: من قوله {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم **التوفيق** والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية **التوفيق**، وجعل الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرا له، راضيا به، راغبا فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرا وباطنا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف." (١)

"وصوله إليها، قال الله تعالى {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة: ١١٥] فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣٢/١

بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان.

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥] ، {وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم} [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع، وقوله {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] فهذا هدى بعد البيان والدلالة، وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكير في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء، قال الله تعالى {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم} [إبراهيم: ٤] فالرسل تبين، والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

[فصل المرتبة السابعة البيان الخاص]." (١)

"وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة، قال تعالى في هذه المرتبة {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل} [النحل: ٣٧] وقال {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} [القصص: ٥٦] فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٦٦/١

[فصل المرتبة الثامنة مرتبة الإسماع]

قال الله تعالى {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} [الأنفال: ٢٣] وقد قال تعالى {وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير} [فاطر: ١٩] وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم} [الأنبياء: ٢] وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه {ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم} [محمد: ١٦] .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن." (١)

"وفي قوله {وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] رد ظاهر عليهم، إذ استعانتهم به إنما تكون عن شيء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته، فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده، إن شاء أوجده وإن شاء لم يوجده بمن ليس ذلك الفعل بيده، ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته؟ .

وفي قوله {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] أيضا رد عليهم، فإن الهداية المطلقة التامة هي المستلزمة لحصول الاهتداء، ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها، وهي المتضمنة للإرشاد والبيان، والتوفيق والإقدار، وجعلهم مهتدين، وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة كما ظنته القدرية، لأن هذا القدر وحده لا يوجب الهدى، ولا ينجي من الردى، وهو حاصل لغيرهم من الكفار، الذين استحبوا العمى على الهدى، واشتروا الضلالة بالهدى.

فصل: النوع الثاني: أهل الإشراك به في إلهيته، وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء، ومليكه وخالقه، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين، ورب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، وهم مع هذا يعبدون غيره،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٦٧/١

ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم، وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا، فهؤلاء لم يوفوا " {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥] " حقه، وإن كان لهم نصيب من " نعبدك " لكن ليس لهم نصيب من إياك نعبد المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك حبا وخوفا ورجاء وطاعة وتعظيما، ف " {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥] " تحقيق لهذا التوحيد، وإبطال للشرك في الإلهية، كما أن " إياك نستعين " تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به فيها، وكذلك قوله {اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة: ٦] فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق " {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] " وأهل الإشراك هم أهل الغضب والضلال.

[فصل في تضمنها الرد على الجهمية معطلة الصفات]

وذلك من وجوه:

أحدها: من قوله {الحمد لله} [الفاتحة: ٢] فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق، وغايته: أنه محمود من وجه دون وجه، ولا يكون محمودا بكل وجه،." (١)

"وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من " {إياك نستعين} [الفاتحة: ٥] " ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من **التوفيق** والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من **الخذلان** والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورا بإزالته لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟ .

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادا عليه،

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٨٦/١

وتفويضا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه ملي به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} [الطلاق: ٣] أي كافيه، والحسب الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس الملك الظاهر، والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلا عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين،." (١)

"وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

ف " {إياك نعبد} [الفاتحة: ٥] " التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، " {وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] " طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و " {اهدنا الصراط المستقيم} [الفاتحة: ٦] " متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٠٣/١

[فصل دعوة جميع الرسل إلى إياك نعبد وإياك نستعين]

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى " {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] " فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح عليه السلام لقومه {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف: ٥٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام وإبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦] وقال {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى {يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم - وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} [المؤمنون: ٥١ - ٥٢] .

[فصل الله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه]

فصل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال." (١)

"قال: فأما معرفة النعمة فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم بروق المنة، والاعتبار بأهل البلاء.

يعني أن حقيقة مشاهدة النعمة يصفو بهذه الثلاثة، فهي النور الذي أوجب اليقظة، فاستنار القلب به لرؤية التنبه، وعلى حسبه قوة وضعفا تصفو له مشاهدة النعمة، فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا في مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس، فليس له نصيب من هذا النور البتة، فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعم بذكره، والتلذذ بطاعته هو أعظم النعم، وهذا إنما يدرك بنور العقل، وهداية **التوفيق**.

وكذلك شيمه بروق منن الله عليه، وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سحب الطبع، وظلمات النفس، والنظر إلى أهل البلاء وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع في دين الله فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقا، فإذا رآهم، وعلم ما هم عليه، عظمت نعمة الله عليه في قلبه، وصفت له وعرف قدرها، فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء.

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٢١/١

قال: وأما مطالعة الجناية فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.

يعني أن من كملت عظمة الحق تعالى في قلبه عظمت عنده مخالفته، لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه، ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونفس.

وأيضا فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميرهِ في التخلص من الجناية التي تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها على التصديق بالوعيد، فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابا لا يرجى معه فلاح البتة، والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع." (١)

"حجابه، والمعصوم من عصمه الله، وبالله المستعان، **والتوفيق** والعصمة.

[فصل منزلة المحاسبة]

[من منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة]

فصل منزلة المحاسبة

فلنرجع إلى ذكر منازل " {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥] " التي لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها.

فذكرنا منها اليقظة والبصيرة والفكرة والعزم.

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله، ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها البتة، وهي على ترتيب السير الحسي، فإن المقيم في وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصر في أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر في أهبة السفر والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة المحاسبة وهي التمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدي ما عليه، لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه، وهي حقيقة التوبة فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضا، وهو أن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/١٦٤

والتحقيق أن التوبة بين محاسبتين، محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها، فالتوبة محفوفة بمحاسبتين، وقد دل على المحاسبة قوله تعالى {يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد} [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ .

والمقصود من هذا النظر م ا يوجبه ويقتضيه، من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا." (١)

"يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة انخلاعه عن اعتصامه بالله، فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة، قال الله تعالى {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم} [آل عمران: ١٠١] فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدا، قال الله تعالى {واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير} [الحج: ٧٨] أي متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى بعد هذا في حقيقة الاعتصام وأن الإيمان لا يقوم إلا به.

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له، وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده، واشتدت عليه مفارقته، وعلم أن الهلك كل الهلك بعده، وهو حقيقة **الخذلان**، فما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلا.

فقد أجمع العارفون ب الله على أن **الخذلان**: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، **والتوفيق**: أن لا يكلك الله إلى نفسك، وله سبحانه في هذه التخلية - بينك وبين الذنب **وخذلانك** حتى واقعته - حكم وأسرار، سنذكر بعضها.

وعلى الاحتمالين فترجع التوبة إلى اعتصامك به وعصمته لك.

قوله: وفرحك عند الظفر به.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/١٨٧

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيا." (١)

"وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى.

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار التوبة لا تستهزئ بها، فلعلك لا تظفر بها في مصنف آخر البتة، ولله الحمد والمنة، وبه **التوفيق.**

[فصل استحسان لبعض الأفعال واستقباح لبعضها]

فصل

قال صاحب المنازل: اللطيفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة، لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم.

هذا الكلام - إن أخذ على ظاهره - فهو من أبطل الباطل، الذي لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين، لنسب إلى لازم هذا الكلام، ولكن من عدا المعصوم - صلى الله عليه وسلم - فمأخوذ من قوله ومتروك، ومن ذا الذي لم تزل به القدم، ولم يكب به الجواد؟ .

ومعنى هذا أن العبد ما دام في مقام التفرقة، فإنه يستحسن بعض الأفعال، ويستقبح بعضها، نظرا إلى ذواتها وما افترقت فيه، فإذا تجاوزها نظر إلى مصدرها الأول، وصدورها عن عين الحكم، واجتماعها كلها في تلك العين، وانسحاب ذيل المشيئة عليها، ووحدة المصدر، وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة، فهي بالنسبة إلى مصدر الحكم، وعين المشيئة لا توصف بحسن ولا بقبح، إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون، وجريانها عليه، فهي بمنزلة نور الشمس واحد في نفسه غير متلون، ولا يوصف بحمرة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٩٨/١

ولا صفرة ولا خضرة، فإذا اتصل بالمحال المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال، لإضافته إليها، واتصاله بها، فيرى أحمر وأصفر وأخضر، وهو بريء من ذلك كله، إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول، المجرد عن القوابل، فهذا أحسن ما يحمل عليه كلامه.." (١)

"[فصل في مشاهد الخلق في المعصية]

[مشاهد الخلق في المعصية ثلاثة عشر]

. فصل في مشاهد الخلق في المعصية وهي ثلاثة عشر مشهدا:

١ - مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة.

٢ - ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة.

٣ - ومشهد الجبر.

٤ - ومشهد القدر.

٥ - ومشهد الحكمة.

٦ - ومشهد التوفيق والخذلان.

٧ - ومشهد التوحيد.

٨ - ومشهد الأسماء والصفات.

٩ - ومشهد الإيمان وتعدد شواهده.

١٠ - ومشهد الرحمة.

١١ - ومشهد العجز والضعف.

١٢ - ومشهد الذل والافتقار.

١٣ - ومشهد المحبة والعبودية.

فالأربعة الأول للمنحرفين، والثمانية البواقي لأهل الاستقامة، وأعلاها المشهد العاشر.

وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد، وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه إلا ما ذكرناه في كتابنا المسمى " سفر الهجرتين في طريق السعادتين ".

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/٢٤٢

[فصل المشهد الأول مشهد الحيوانية]

فأما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة فمشهد الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان، ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها، فهؤلاء نفوسهم حيوانية لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية." (١)

"ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية أإله مع الله فعل هذا؟ حتى يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله، فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقرارهم وشهادتكم.

ومن قال: المعنى هل مع الله إله آخر؟ من غير أن يكون المعنى " فعل هذا " فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أي فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله: {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار} [الرعد: ١٦] وقوله: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه} [لقمان: ١١] وقوله: {أفمن يخلق كمن لا يخلق} [النحل: ١٧] وقوله: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} [النحل: ٢٠] وقوله: {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} [الفرقان: ٣] وهو كثير في القرآن، وبه تتم الحجة كما تبين.

والمقصود أن العبد يحصل له هذا في المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه، فموارد الأمور كلها منه، ومصادرها إليه، وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به، ولا متكل إلا عليه، كما قال شعيب خطيب الأنبياء {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب} [هود: ٨٨] .

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤٠٣/١

[فصل المشهد السابع مشهد **التوفيق** **والخذلان**]

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه، ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده." (١)

"وانتفاعه به، وقد أجمع العارفون بالله أن **التوفيق** هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن **الخذلان** هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فالعبيد متقلبون بين توفيقه **وخذلانه**، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه **بخذلانه** له، فهو دائر بين توفيقه **وخذلانه**، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئا هو له، وإنما منعه مﾠا هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى **التوفيق** في كل نفس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فهجيرى قلبه ودأب لسانه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك، ودعواه: يا حي يا قيوم، يا بديع السماوات والأرض، يﾠا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله **وخذلانه**، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من **خذلانه** عياذ الملهوف، ويلقي نفسه بين يديه، طريحا ببابه مستسلما له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعا ذليلا مستكينا، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ونشورا.

والتوفيق إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه، مريدا له، محبا له، مؤثرا له على غيره، ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له، قال تعالى {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون – فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم} [الحجرات: ٧ – ٨] فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله، ولا." (٢)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤١٤/١

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤١٥/١

"يضعه عند غير أهله، وذكر هذا عقيب قوله: {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم} [الحجرات: ٧] ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال {ولكن الله حبب إليكم الإيمان} [الحجرات: ٧] .

يقول سبحانه لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضرب للتوفيق **والخذلان** مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولا، وكتب معه إليهم كتابا يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرب البلد، ومهلك من فيها، وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم، فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم، فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملا، وساقوهم سوقا إلى الملك، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم، وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالما لهؤلاء، أم عادلا فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

وقد فسرت القدرية الجبرية **التوفيق** بأنه خلق الطاعة، **والخذلان** بأنه خلق المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى." (١)

"محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

وقابلهم القدرية النفاة، ففسروا **التوفيق** بالبيان العام، والهدى العام، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤١٦/١

وتهيئة أسبابها، وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة، وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين، إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين، ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم، والكفار **بخذلان** امتنع به الإيمان منهم، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما.

والتزموا لهذا الأصل لوازم، قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء، ولم يجدوا بدا من التزامها، فظهر فساد مذهبهم، وتناقض قولهم، لمن أحاط به علما، وتصوره حق تصوره، وعلم أنه من أبطل مذهب في العالم وأردئه.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم، فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات، وأثبتوا الأسباب والحكم، والغايات والمصالح، ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته، ومن قال ذلك فلم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.." (١)

"ويخرج منه حقه، وقال " هما في الأجر سواء» وتمنى صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أنه لو كان تمتع وحل ولم يسق الهدي، وكان قد قرن، فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

[فصل المفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك تعالى]

وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا - كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: ٨١ - ٨٢] وقال تعالى {واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون - لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون} [يس: ٧٤ - ٧٥].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤١٧/١

فأعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وأوهن البيوت.

وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى {لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا} [الإسراء: ٢٢] مذموما لا حامد لك، مخذولا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورا محمودا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموما منصورا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد." (١)

"وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقا، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة، ثم يقبض على لحيته ويهزها. ويقول لنفسه: يا مأوى كل سوء، وهل رضيتك لله طرفة عين؟

وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه. ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها. ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور.

[فصل الدرجة الثانية الخجل من العمل مع بذل المجهود]

فصل

قال صاحب " المنازل ":

الدرجة الثانية: الخجل من العمل مع بذل المجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود.

هذه ثلاثة أمور " خجله " من عمله، وهو شدة حيائه من الله؛ إذ لم ير ذلك العمل صالحا له، مع

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/٤٥٥

بذل مجهوده فيه. قال تعالى: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} [المؤمنون: ٦٠] .

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه» .

وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني، الذي يراه الناس، حياء من الله عز وجل.." (١)

"فالمؤمن: جمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

الثاني: توفير الجهد باحتمائه من الشهود، أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل، محتميا عن شهوده منك وبك.

الثالث: أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد. فترى في ضوء ذلك النور أن عملك من عين جوده لا بك، ولا منك.

فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء: عمل، واجتهاد فيه، وخجل، وحياء من الله عز وجل، وصيانة عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه.

[الدرجة الثالثة إخلاص العمل بالخلاص من العمل]

قال: الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسير سير العلم. وتسير أنت مشاهدا للحكم، حرا من رق الرسم.

قد فسر الشيخ مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله: تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم.

ومعنى كلامه: أنك تجعل عملك تابعا لعلم، موافقا له، مؤتما به. تسير بسيره وتقف بوقوفه، وتتحرك بحركته. نازلا منازله، مرتويا من موارده، ناظرا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدا به، فعلا وتركا، وطلبا وهربا. ناظرا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببا وكسبا. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدا للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات. ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته. فيكون قائما بالأمر والنهي فعلا وتركا، سائرا بسيره، وبالقضاء والقدر، إيمانا وشهودا وحقيقة. فهو ناظر إلى الحقيقة. قائم بالشريعة.

وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: {لمن شاء منكم أن يستقيم - وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٩٥

العالمين} [التكوير: ٢٨ - ٢٩] وقال تعالى: {إن هذهۦ تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا - وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} [الإنسان: ٢٩ - ٣٠] .

فترك العمل يسير سير العلم: مشهد: {لمن شاء منكم أن يستقيم} [التكوير: ٢٨] ، وسير صاحبه." (١)

"الوجه الثاني: أن أهم مصالح المتوكل: حصول مراضي محبوبه ومحابه. فهو يتوكل عليه في تحصيلها له. فأي مصلحة أعظم من هذه؟

وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلى الله. فإنه لا يفوض إليه محابه. والمتوكل يتوكل عليه في محابه.

والوهم إنما دخل من حيث يظن الظان: أن التوكل مقصور على معلوم الرزق، وقوة البدن، وصحة الجسم. ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلى التوكل في إقامة الدين والدعوة إلى الله.

[درجات التفويض]

[الدرجة الأولى أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة]

قال: وهو على ثلاث درجات: الأولى: أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة. فلا يأمن من مكر، ولا ييأس من معونة، ولا يعول على نية.

أي يتحقق أن استطاعته بيد الله، لا بيده، فهو مالكها دونه. فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز. فهو لا يتحرك إلا بالله، لا بنفسه. فكيف يأمن المكر، وهو محرك لا محرك؟ يحركه من حركته بيده، فإن شاء ثبطه وأقعده مع القاعدين.

كما قال فيمن منعه هذا **التوفيق**: {ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} [التوبة: ٤٦] .

فهذا مكر الله بالعبد: أن يقطع عنه مواد توفيقه. ويخلي بينه وبين نفسه، ولا يبعث دواعيه، ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه. وليس هذا حقا على الله. فيكون ظالما بمنعه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. بل هو مجرد فضله الذي يحمد على بذله لمن بذله، وعلى منعه لمن منعه إياه. فله الحمد على هذا وهذا.

ومن فهم هذا فهم بابا عظيما من سر القدر، وانجلت له إشكالات كثيرة. فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلا يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه. فيمنعه فعل نفسه به، وهو توفيقه؛ لأنهۥ يكرهه، ويقهره على

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٩٦

فعل مساخطه، بل يكله إلى نفسه وحوله وقوته، ويتخلى عنه. فهذا هو المكر.
قوله: ولا ييأس من معونة، يعني إذا كان المحرك له هو الرب جل جلاله. وهو أقدر القادرين. وهو الذي تفرد بخلقه ورزقه. وهو أرحم الراحمين. فكيف ييأس من معونته له؟
قوله: ولا يعول على نية، أي لا يعتمد على نيته وعزمه، ويثق بها. فإن نيته وعزمه." (١)

"وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. فقال {وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا} [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} [الشعراء: ٨٤] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى {وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} [يونس: ٢] وقال {إن المتقين في جنات ونهر - في مقعد صدق عند مليك مقتدر} [القمر: ٥٤ - ٥٥] .
فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.
وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.
فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقا ثابتا بالله، وفي مرضاته. بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها. ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة.
وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله. بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا **الخذلان** والبوار.
وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/١٤٠

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضامن على الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني." (١)

"وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب ... إذا صح منك الود فالكل هين

وكل الذي فوق التراب تراب

ثم ذكر الشيخ – رحمه الله – ما يستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن. فقال:

ويستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود. وحسن الإسلام. وقوة الصبر.

من المعلوم: أن المؤثر لرضا الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولا بد. هذه سنة الله في خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل. والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن آثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وغرثاهم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب {يأأيتها النفس المطمئنة – ارجعي إلى ربك راضية مرضية} [الفجر: ٢٧ – ٢٨] ومن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال. ولا تقلقله الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين. وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضا: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم. **والتوفيق** بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده {وما تشاءون إلا أن

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٢٥٩

يشاء الله إن الله كان عليما حكيما - يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا ألـيما}
[الإنسان: ٣٠ - ٣١] .." (١)

"وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة

مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا ... ووالله لو أضحى نصيبك وافرا

رحمت عدوا حاسدا لك قاليا ... ألم تر آثار القطيعة قد بدت

على حاله فارحمه إن كنت راثيا ... خفافيش أعشاها النهار بضوئه

ولاءمها قطع من الليل باديا ... فجالت وصالت فيه حتى إذا الن

هار بدا استخفت وأعطت تواريا ... فيا محنة الحسناء تهدى إلى امرئ

ضرير وعنين من الوجد خاليا ... إذا ظلمة الليل انجلت بضيائها

يعود لعينيه ظلاما كما هيا ... فضن بها إن كنت تعرف قدرها

إلى أن ترى كفؤا أتاك موافيا ... فما مهرهـا شيء سوى الروح أيها ال

جبان تأخر لست كفؤا مساويا ... فكن أبدا حيث استقلت ركائب ال

محبة في ظهر العزائم ساريا ... وأدلج ولا تخش الظلام فإنه

سيكفيك وجه الحب في الليل هاديا ... وسقها بذكراه مطاياك إنه

سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا ... وعدها بروح الوصل تعطيك سيرها

فما شئت واستبق العظام البواليا ... وأقدم فإما منية أو منية

تريحك من عيش به لست راضيا ... فما ثم إلا الوصل أو كلف بهم

وحسبك فوزا ذاك إن كنت واعيا ... أما سئمت من عيشها نفس واله

تبيت بنار البعد تلقى المكاويا ... أما موته فيهم حياة؟ وذله

هو العز والتوفيق ما زال غاليا ... أما يستحي من يدعي الحب باخلا

بما لحبيب عنه يدعوه ذا ليا ... أما تلك دعوى كاذب ليس حظه

من الحب إلا قوله والأمانيا ... أما أنفس العشاق ملك لغيرهم

بإجماع أهل الحب ما زال فاشيا ... أما سمع العشاق قول حبيبة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٢٨٧

لصب بها وافى من الحب شاكيا ... ولما شكوت الحب قالت. كذبتني
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا ... فلا حب حتى يلصق القلب بالحشا
وتخرس حتى لا تجيب المناديا ... وتنحل حتى لا يبقي لك الهوى
سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

[فصل المحبة تعلق القلب بين الهمة والأنس]

فصل

قال صاحب المنازل رحمه الله:

المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس.." (١)

"قوله: " وهي على ثلاثة أركان: مشاهدة القرب، والصعود عن العلم، ومطالعة الجمع، إنما كانت هذه الثلاثة أركانا لها؛ لأن صاحب هذه المعرفة قد وصل من القرب إلى مقام يليق به بحسب معرفته، فكلما كانت معرفته أتم؛ كان قربه أتم، فإن شهود الوسائط والوسائل حجاب عن عين القرب، وإلغاؤها وجحودها حجاب عن أصل الإيمان.

وأما صعوده عن العلم: فليس المراد به صعوده عن أحكامه، فإن ذلك سقوط ونزول إلى الحضيض الأدنى، لا صعود إلى المطلب الأعلى، وإنما المراد: أنه يصعد بأحكام العلم عن الوقوف معه، وتوسيطه بينه وبين المطلوب، فإن الوسائط قد طوي بساطها في هذا الشهود والعرفان، أعني: بساط الوقوف معها والنظر إليها، فيدرك مشهوده ومعروفه به سبحانه، لا بالعلم والخبر، بل بالمشاهدة والعيان، وإن كان لم يصل إلى ذلك إلا بالعلم والخبر، لكنه قد صعد من العلم والخبر إلى المعلوم المخبر عنه.

وأما مطالعة الجمع فهي الغاية عند هذه الطائفة: ونحن لا ننكر ذلك، لكن أي جمع هو؟ هل هو جمع الوجود، كما يقوله الاتحادي؟ أم جمع الشهود، كما يقوله صاحب الفناء في توحيد الربوبية؟ أم هو جمع الإرادة كلها في مراد الرب تعالى الديني الأمري؟ فالشأن في هذا الجمع الذي مطالعته من أعلى أنواع المعرفة.

نعم هاهنا جمع آخر، مطالعته هي كل المعرفة، وهو: جمع الأفعال في الصفات، وجمع الصفات في الذات، وجمع الأسماء في الذات والصفات والأفعال، فمطالعة هذا الجمع: هي غاية المعرفة، وأعلى

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٤

أنواعها، وهي – لعمر الله – معرفة خاصة الخاصة، والله المستعان، وبه **التوفيق**، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[فصل الفناء]

[حقيقة الفناء]

فصل الفناء

قال صاحب المنازل: (باب الفناء) قال الله تعالى {كل من علىيها فان} [الرحمن: ٢٦] . {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [الرحمن: ٢٧] .." (١)

"فدلالة القرآن سمعية عقلية.

فصل

المسألة الثانية:

قوله: " ويوجد بتبصير الحق، وجوب الشيء شرعا لا يستلزم وجوده حسا، فلذلك ذكر ما يوجد به بعد ذكر ما يجب به، وهو تبصير الحق تعالى، ومراده: التبصير التام الذي لا تختلف عنه الهداية، وإلا فقد يبصر العبد الحق ولا توجد منه الهداية، كما قال تعالى {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] فهو – سبحانه – بصرهم، فآثروا الضلال على الهدى، وقال تعالى {وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين} [العنكبوت: ٣٨] وقال تعالى {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة: ١١٥] وقال تعالى عن قوم فرعون {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤] فهذا التبصير لم يوجب وجود الهداية؛ لأنه سبحانه لم يرد وجودها وإنما أراد وجود مجرد البصيرة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما التبصير التام: فإنه يستلزم وجود الهداية، وهو الذي أمرنا أن نسأله إياه في كل صلاة، وقال فيه أهل الجنة {الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} [الأعراف: ٤٣] وقال تعالى {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [يونس: ٢٥] فعم بدعوته البيان والدلالة، وخص بهدايته **التوفيق** والإلهام، فلو قال الشيخ: ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره، لكان أحسن، ولعله هو مراده، والله أعلم.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٤٢

فصل

المسألة الثالثة:

قوله: " وينمو على مشاهدة الشواهد " وهذا أيضا يحتاج إلى أمر آخر، وهو الإجابة لداعي الحق، فلا يكفي مجرد مشاهدة الشواهد في نموه {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} [يوسف: ١٠٥] يمر عليها العبد ولا ينمو بها ولا يزيد، بل ينقص إيمانه وتوحيده، فإذا أجاب الداعي وتبصر في الشواهد نما توحيده، وقوي." (١)

"صحيحه "اللهم انى أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت امرى اليك وألجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك " فلا تجد المؤمن أبدا الا راغبا وراهبا والرغبة والرهبة لا تقوم الا على ساق الصبر فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر

الاعتبار السادس ان جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والاخرة أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الاخرى وأشرف الاقسام أن يفعل ما ينفعه في الاخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الايمان ففعل ما ينفعه هو الشكر وترك ما يضره هو الصبر

الاعتبار السابع ان العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر

الاعتبار الثامن إن العبد فيه داعيان داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر وإجابة داعى الله والدار الآخرة هو الشكر

الاعتبار التاسع ان الدين مداره على أصلين العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذى رواه أحمد والنسائى عن النبي: "اللهم إنى أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد" وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة **والتوفيق**

الاعتبار العاشر ان الدين مبنى على أصلين الحق والصبر وهما المذكوران في قوله تعالى

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٤٥٧

{وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس وكان هذا." (١)

"يقال شكرته وشكرت له واللام أفصح وقوله تعالى {لا نريد منكم جزاء ولا شكورا} يحتمل أن يكون مصدرا كالقعود وأن يكون جميعا كالبرود والكفور والشكران خلاف الكفران وتشكرت له مثل شكرت له والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها واشتكر الضرع امتلأ لبنا تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكرا فهى شكرة وشكرت الشجرة تشكر شكرا إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به وبين الشكر الذى هو جزاء الرب الشكور كيف نجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء ويقال أيضا دابة شكور اذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا الا بمجموعها أحدها اعترافه بنعمة الله عليه والثانى الثناء عليه بها والثالث الاستعانة بها على مرضاته

وأما قول الناس فى الشكر فقالت طائفة هو الاعتراف بنعمه المنعم على وجه الخضوع وقيل الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه اليه فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر احسانه اليه وقيل شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالحدمة وقيل شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا وقيل الشكر معرفه العجز عن الشكر ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه وذلك التوفيق من أجل النعم عليك تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر الا ترى نفسك للنعمه أهلا وقيل الشكر استفراغ الطاقه فى الطاعه وقيل الشاكر الذى يشكر على الموجود والشكور الذى يشكر على المفقود وقيل الشاكر الذى يشكر على الرفد والشكور الذى يشكر على الرد وقيل الشاكر الذى." (٢)

"قال تعالى: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز.

فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ونفذه السيف الناصر.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/١١٠

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/١٤٨

شعر:

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف ... يقيم ظباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.." (١)

"ما ذهبوا إليه" وقال أبو إسحاق "والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين} وقال: {وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم} وإنما معنى الإرسال التسليط" قلت وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال كما في الحديث: "إذا أرسلت كلبك المعلم أي سلطته ولو خلى بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم يبح صيده" وكذلك قوله: {وفي وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} أي سلطناها وسخرناها عليهم وكذلك قوله: {وأرسل عليهم طيرا أبابيل} وكذلك قوله: {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة} والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى ولا يتم التسليط إلا به فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن تفعل فعلا ولم تمنعه من فعله فهذا هو التسليط ثم أن القدرية تناقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم فقد نقضوا أصلهم فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب وهذا عين قول أهل السنة وإن قالوا لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه وهذا أبطل الباطل ثم قالت القدرية تؤزهم أزا تأمرهم بالمعاصي أمرا وحكوا ذلك عن الضحاك وهذا لا يلتفت إليه إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه ولا تساعد اللغة على ذلك ولو كان ذلك صحيحا لكان يؤز المؤمنين أيضا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: {قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس} وقوله: {أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون} وقوله: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} ومن المعلوم أن الإعاذة من

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ابن القيم ١/٢٣٣

الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له ويحول بينه وبين فعله الاختياري له فدل على أن فعله مقدور له سبحانه إن شاء سلطه على العبد وإن شاء حال بينه وبينه وهذا على أصول القدرية باطل فلا يثبتون حقيقة الإعاذة وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد وجعلوا الآية ردا على الجبرية والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة كما أن الإعاذة فعله وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق.

فصل: ومن ذلك قوله تعالى: {واصبر وما صبرك إلا بالله} وقول هود وما توفيقي إلا بالله ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد وقد أخبر أنه به لا بالعبد وهذا لا ينبغي أن يكون فعلا للعبد حقيقة ولهذا أمر به وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه وإنما يؤمر العبد بفعله هو ومع هذا فليس فعله واقعا به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالتصبير منه سبحانه وهو فعله والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: {ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله} ففي الآية أربعة أدلة أحدها: قولهم: {أفرغ علينا صبرا} والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو." (١)

"الباب الرابع عشر: في الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم

هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدى وكل مصيبة دون مصيبة الضلال وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد وأن العبد هو الضال أو المهتدي فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن فأما مراتب الهدى فأربعة: إحداها: الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه، المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة، المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/٦٣

ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل، المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

فصل: فأما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: {سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى} فذكر سبحانه أربعة أمور عامة الخلق والتسوية والتقدير والهداية وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير قال عطاء "خلق فسوى أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: {الذي أحسن كل شيء خلقه} فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال فالخلق الإيجاد والتسوية إتقانه وإحسان خلقه" وقال الكلبي "خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين" وقال مقاتل" خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق" وقال أبو إسحاق "خلق الإنسان مستويا" وهذا تمثيل وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره قال تعالى: {ونفس وما سواها} وقال: {فسواهن سبع سماوات} فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير فتأمل ذلك فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والشر ليس إليك" والمقصود أن كل." (١)

"وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه وذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى} فحمل قوله: {أعطى كل شيء خلقه} على هذا المعنى غير صحيح فتأمله وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: "أعطى كل شيء خلقه أعطى اليد البطش والرجل المشي واللسان النطق والعين البصر والأذن السمع" ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له والخلق على هذا بمعنى المفعول أي أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء وهذا المعنى وإن كان صحيحا في نفسه لكن معنى الآية أعم والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/٦٥

فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: {فما بال القرون الأولى} أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان والمعنى لو كان ما تقوله حقا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين وهذا شأن كل مبطل ولهذا صار هذا ميزانا في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: {علمها عند ربي} أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال وقال الكلبي: "يعني به اللوح المحفوظ" وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا من تمام قوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فتأمله.

فصل: وهو سبحانه في القرآن كثيرا ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} وقوله: {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان} وقوله: {ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة} وقوله: {إنا خلقنا الأنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} وقوله: {أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة} الآيات ثم قال: {أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر} فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.

فصل: المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان للمكلفين وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطا فيه أو جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع ولهذا قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم

فاستحبوا العمى على الهدى} وقال: {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا." (١)

"بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى: {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} وقال تعالى عن قوم فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها وقال: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين} وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: {إنك لا تهدي من أحببت} ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "بعثت داعيا ومبلغا وليس إلي من الهداية شيء وبعث إبليس مزينا ومغويا وليس إليه من الضلالة شيء" قال تعالى: {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} فجمع سبحانه بين الهداء يتبين العامة والخاصة فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلا وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلا وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فأنها هداية تخص المكلفين وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا إلا بعد إقامتها عليه قال تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} وقال: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} وقال: {أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين} وقال: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير} فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه قيل حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانا وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه نعم قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/٧٩

لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

فصل: المرتبة الثالثة من مراتب الهداية هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من التي قبلها وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى وإنكار فعل العبد وقدرته وأن يكون له تأثير في الفعل البتة فلم يهتدوا لقول هؤلاء بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه وهذا شأن المبطل إذا دعى مبطلا آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل كالنصراني إذا دعى اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي قال تعالى: {من يهد الله فهو المهتد} ولا سبيل إلى وجود الأثر." (١)

"الذئاب قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة: "سمعت ابن أبي الدنيا يقول: أن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره" لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن حمد بن سعيد القطان ثنا عبيد الله بن بكر السهمي عن أبيه: "أن قوما كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر فيقول أتدرون ما تقول هؤلاء فيقولون لا فيقول تقول كذا وكذا فيحيلنا على شيء لا ندري أصادق فيه هو أم كاذب إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو فقال أتدرون ما تقول هذه الشاة قلنا لا قال تقول للسخلة إلحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان قال فانتهينا إلى الراعي فقلنا له ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا قال نعم ولدت سخلة عام أول فأكلها الذئب بهذا المكان ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها فقال أتدرون ما يقول هذا البعير قلنا لا قال فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه قال فانتهينا إليهم فقلنا يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه قال فأناخوا البعير وحطوا عنه فإذا هو كما قال فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت وقد حذر الله سبحانه آدم من ذئبه مرة بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/٨٠

فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم} .

فصل: وأما الإركاس فقال تعالى: {فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا} قال الفراء: "أركسهم ردهم إلى الكفر" وقال أبو عبيدة: "يقال ركست الشيء وأركسته لغتان إذا رددته والركس قلب الشيء على رأسه" أورد أوله على آخره والارتكاس الارتداد قال أمية

فاركسوا في حميم النار إنهم ... كانوا عصاة وقالوا الإفك الزورا

ومن هذا يقال للروث الركس لأنه رد إلى حال النجاسة ولهذا المعنى سمي رجيعا والركس والنكس والمركوس والمنكوس بمعنى واحد قال الزجاج: "أركسهم نكسهم وردهم والمعنى أنه ردهم إلى حكم الكفار من الذل والصغار" وأخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله وإن كان إركاسه كان بسبب كسبهم وأعمالهم كما قال: {بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} فهذا توحيده وهذا عدله لا ما تقوله القدرية المعطلة من أن التوحيد إنكار الصفات والعدل والتكذيب بالقدر.

فصل: وأما التثبيط فقال تعالى: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله قال ابن عباس: "يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج" وقال في رواية أخرى: "حبسهم" قال مقاتل: "وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين" وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط **والخذلان** قبل وبعد فقال: {إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأسا ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب." (١)

"الوجه بل يكون خروجهم خروج **خذلان** لرسوله وللمؤمنين فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه فكان مكروها له من هذا الوجه ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/١٠١

يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم وهذا الخروج المكروه له ضدان أحدهما: الخروج المرضي المحبوب وهذا الضد هو الذي يحبه والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضا وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد فيقول للسائل قعودهم مبغوض له ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه وأحدهما أكره له من الآخر لأنه أعظم مفسدة فإن قعودهم مكروه له وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه فإن مفسدة قعودهم تختص بهم ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين فتأمل هذا الموضع فإن قلت فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه وهو الذي خرج عليه المؤمنون قلت قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله وليس كل محل يصلح لذلك ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته فإن قلت وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة قلت يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوبا له فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان وهو محبته لجهاز أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر.

فصل: وأما التزيين فقال تعالى: {كذلك زينا لكل أمة عملهم} وقال: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} وقال: {وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون} فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقا ومشيئة وحذف فاعله تارة ونسبة إلى سببه ومن أجراه على يده تارة وهذا التزيين سبحانه حسن إذ هو ابتلاء واختبار بعيد ليتميز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر كما قال تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا} وهو من الشيطان قبيح وأيضا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيء العمل على حسنه فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ من الحسن فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له

وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنا عقوبة له فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب." (١)

"عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه وينهى عن جميع ما أمر به ولا فرق بين هذا وهذا إلا لمجرد الأمر والنهي ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره وينعم على من لم يطعه طرفة عين بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول وإلا فهو جائز عليه وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه والعجب العجاب أن كثيرا من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي وذلك الإثبات والله ولي التوفيق.

فصل: النوع الثاني عشر إنكاره سبحانه أن يسوى بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين وأن حكمته وعدله يأبى ذلك أما الأول فكقوله: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون} فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه ومنكرو الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه بل يقولون بوقوعه وقال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} وقال: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} فجعل سبحانه ذلك حكما سيئا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلا عن أن ينسب إليه بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره وأن حكمته تأبى ذلك كما قال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين} وقال: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا} وقال: {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة} فأنكر عليهم هذا الظن

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/١٠٣

والحسبان لمخالفته بحكمته وأما الثاني وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فكقوله: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أن◌عم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} وقوله: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} وقوله: {المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض} وقوله: {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض} وقوله: {ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين} وقوله: {أكفاركم خير من أولئكم} وقوله: {دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها} وقوله: {سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا} وقوله: {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد◌ لسنة الله تبديلا} وقوله: {سنة الله التي قد خلت من قبل} فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلالهم وكبتهم وقال تعالى: {إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم} والقرآن مملوء من هذا يخبر تعالى أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله وضد حكم مضاده ومخالفه وكل نوع من هذه." (١)

"حسن. قال الشافعي: إن زاد فقال الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله والله أكبر، كان حسنا.

[فصل في هديه صلى الله عليه وسلم في الذكر عند رؤية الهلال]

فصل

في هديه صلى الله عليه وسلم في الذكر عند رؤية الهلال

يذكر عنه أنه كان يقول («اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الل◌◌ه»)

قال الترمذي: حديث حسن.

ويذكر عنه أنه كان يقول عند رؤيته: («الله أكبر، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما يحب ربنا ويرضى، ربنا وربك الله») ذكره الدارمي.

وذكر أبو داود عن قتادة أنه بلغه «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال: (هلال خير

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/١٩٩

ورشد، هلال خير ورشد، آمنت بالذي خلقك ثلاث مرات، ثم يقول الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا، وجاء بشهر كذا») وفي أسانيدها لين.." [1]

"ثم رضني به " قال: ويسمي حاجته») ، قال: رواه البخاري.

فعوض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بهذا الدعاء، عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين، يطلبون بها علم ما قسم لهم في الغيب، ولهذا سمي ذلك استقساما، وهو استفعال من القسم، والسين فيه للطلب وعوضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار، وعبودية، وتوكل، وسؤال لمن بيده الخير كله الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه. فهذا الدعاء، هو الطالع الميمون السعيد، طالع أهل السعادة **والتوفيق**، الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء **والخذلان**، الذين يجعلون مع الله إلها آخر، فسوف يعلمون.

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه، والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق.

وفي " مسند الإمام أحمد " من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: («من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم." [2]

"خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة.

[فصل في ذكر السابقين إلى الإسلام]

فصل

ولما دعا صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل استجاب له عباد الله من كل قبيلة، فكان حائز قصب

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٢/٣٦١

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٢/٤٠٥

سبقهم صديق الأمة وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر رضي الله عنه، فآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرة، فاستجاب لأبي بكر: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص.

وبادر إلى الاستجابة له صلى الله عليه وسلم صديقة النساء: خديجة بنت خويلد، وقامت بأعباء الصديقية وقال لها: («لقد خشيت على نفسي، فقالت له: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا») ثم استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة والأخلاق والشيم على أن من كان كذلك لا يخزى أبدا، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزي والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركبه الله على أحسن الصفات، وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبها، وبهذا العقل والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها بالسلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم.." (١)

"يقول لا يصلى على القبر أو يصلى عليه إلى شهر.

ومنها: أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج.

ومنها: أن المسلمين إذا قتلوا واحدا منهم في الجهاد يظنونه كافرا، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الدية، وتصدق بها على المسلمين.

[فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد]

وقد أشار الله – سبحانه وتعالى - إلى أمهاتها، وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: {وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال} [آل عمران: ١٢١] [آل عمران: ١٢١] ، إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم}

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٧/٣

[آل عمران: ١٥٢] ، [آل عمران: ١٥٢] .

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة، وتحرزا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائما لم." (١)

"بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابغة، والحجة البالغة.

[فصل للاحتراز من الإصابة بالعين ستر محاسن من يخاف عليه العين]

فصل

ومن علاج ذلك أيضا والاحتراز منه ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردها عنه، كما ذكر البغوي في كتاب " شرح السنة ": أن عثمان رضي الله عنه رأى صبيا مليحا فقال: («دسموا نونته؛ لئلا تصيبه العين») ثم قال في تفسيره ومعنى: دسموا نونته أي: سودوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير.

وقال الخطابي في " غريب الحديث " له عن عثمان: إنه رأى صبيا تأخذه العين فقال: («دسموا نونته») فقال أبو عمرو: سألت أحمد بن يحيى عنه فقال: أراد بالنونة النقرة التي في ذقنه. والتدسيم: التسويد. أراد: سودوا ذلك الموضع من ذقنه ليرد العين. قال: ومن هذا حديث عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: («خطب ذات يوم وعلى رأسه عمامة دسماء») أي: سوداء. أراد الاستشهاد على اللفظة ومن هذا أخذ الشاعر قوله:." (٢)

"اليسير الذي ينقلب سريعا لذة وسرورا وفرحا لدفع هذين الضررين العظيمين. وجهله وهواه، وظلمه وطيشه، وخفته يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه جالبا عليه ما جلب، والمعصوم من عصمه الله. فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تطاوعه لهذه المعالجة، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٩٦/٣

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٥٩/٤

عاجلته، وما تمنعه من مصالحها، فإنها أجلب شيء لمفاسد الدنيا، وأعظم شيء تعطيلا لمصالحها، فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذي هو ملاك أمره، وقوام مصالحه.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، فليتذكر قبائح المحبوب، وما يدعوه إلى النفرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعاف محاسنه التي تدعو إلى حبه، وليسأل جيرانه عما خفي عليه منها، فإنها المحاسن، كما هي داعية الحب والإرادة، فالمساوئ داعية البغض والنفرة، فليوازن بين الداعيين، وليحب أسبقهما وأقربهما منها بابا، ولا يكن ممن غره لون جمال على جسم أبرص مجذوم، وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل، وليعبر من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب.

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثا به، متضرعا متذللا، مستكينا، فمتى وفق لذلك فقد قرع باب **التوفيق**، فليعف وليكتم، ولا يشبب بذكر المحبوب، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى، فإنه يكون ظالما معتديا.

[بطلان حديث " من عشق فعف ... "]

ولا يغتر بالحديث الموضوع على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رواه سويد بن سعيد، عن علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم. ورواه عن أبي مسهر أيضا، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد الملك بن عبد." (١)

"التكميل ظاهرا وباطنا، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسر ذلك أن الصلاة صلة بالله عز وجل، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد **التوفيق** من ربه عز وجل، والعافية والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه.

[صبر]

: (الصبر نصف الإيمان) ، فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر، كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال تعالى: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} [إبراهيم: ٥] [إبراهيم: ٥] والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على فرائض الله، فلا يضيعها،

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٢٥٢/٤

وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها، وصبر على أقضيته وأقداره، فلا يتسخطها، ومن استكمل هذه المراتب الثلاث، استكمل الصبر، ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خير عيش أدركناه بالصبر) . وإذا تأمّلت مراتب الكمال المكتسب في العالم، رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة.

فالصبر طلسم على كنز العلى ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حفظت صحة." (١)

"وذكر الشافعي رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنهما، قال: («كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصابنا مطر، فحسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبه، وقال: إنه حديث عهد بربه،») وقد تقدم في هديه في الاستسقاء ذكر استمطاره صلى الله عليه وسلم، وتبركه بماء الغيث عند أول مجيئه.

[حرف الفاء]

[فاتحة الكتاب]

حرف الفاء

فاتحة الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: («وما أدراك أنها رقية») .

ومن ساعده **التوفيق**، وأعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣٠٥/٤

مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة على التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه.." (١)

"لأب، فوافقنا الحكمين وقلنا بالأمرين، ولم نفرق تفريقا باردا جدا سمجا لا أثر له في نفي الولد حملا ونفيه مولودا، فإن الشريعة لا تأتي على هذا الفرق الصوري الذي لا معنى تحته البتة، وإنما يرتضي هذا من قل نصيبه من ذوق الفقه وأسرار الشريعة وحكمها ومعانيها، والله المستعان، وبه **التوفيق**.

[فصل إلحاق ولد اللعان بأمه]

فصل

الحكم السابع: إلحاق الولد بأمه عند انقطاع نسبه من جهة أبيه، وهذا الإلحاق يفيد حكما زائدا على إلحاقه بها مع ثبوت نسبه من الأب، وإلا كان عديم الفائدة، فإن خروج الولد منها أمر محقق، فلا بد في الإلحاق من أمر زائد عليه، وعلى ما كان حاصلا مع ثبوت النسب من الأب، وقد اختلف في ذلك.

فقالت طائفة: أفاد هذا الإلحاق قطع توهم انقطاع نسب الولد من الأم كما انقطع من الأب، وأنه لا ينسب إلى أم ولا إلى أب، فقطع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوهم وألحق الولد بالأم، وأكد هذا بإيجابه الحد على من قذفه أو قذف أمه، وهذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وكل من لا يرى أن أمه وعصباتها له.

وقالت طائفة ثانية: بل أفادنا هذا الإلحاق فائدة زائدة، وهي تحويل النسب الذي كان إلى أبيه إلى أمه، وجعل أمه قائمة مقام أبيه في ذلك، فهي عصبته وعصباتها أيضا عصبته، فإذا مات حازت ميراثه، وهذا قول ابن مسعود، ويروى عن علي، وهذا القول هو الصواب؛ لما روى أهل السنن الأربعة من حديث واثلة بن الأسقع عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: («تحوز المرأة ثلاثة مواريث: عتيقها ولقيطها وولدها الذي لاعنت عليه») ورواه الإمام أحمد وذهب إليه.

وروى أبو داود في " سننه ": من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن." (٢)

"الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

هذا باب إنما يدخل منه رجلان أحدهما من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه فآثر أدنى الفوتين واختار أسهل العقوبتين والثاني رجل غلب عقله على هواه فعلم ما

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣١٨/٤

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣٥٩/٥

في الفاحشة من المفاسد وما في العدول عنها من المصالح فآثر الأعلى على الأدنى وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام فقالت المرأة ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاختار السجن على الفاحشة ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال {وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين} فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به **الخذلان** وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا} ولهذا كان من دعائه يا مقلب." (١)

"الثالث والثلاثون أن الهوى تخليط ومخالفته حمية ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه قال عبد الملك بن قريب مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت ألا تمسح عينيك قال نهاني الطبيب عن ذلك ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر وإذا أمر لا يأتمر فقلت ألا تشتهي شيئا فقال بلى ولكني أحتمي إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم فهلكوا

الرابع والثلاثون أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب **التوفيق** ويفتح عليه أبواب **الخذلان** فتراه يلهج بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا وقد سد على نفسه طرق **التوفيق** باتباعه هواه قال الفضيل ابن عياض من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد **التوفيق**

وقال بعض العلماء الكفر في أربعة أشياء في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ثم قال رأيت منهن اثنتين رجلا غضب فقتل أمه ورجلا عشق فتنصر وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني ... فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت دع أحدهما تنل الآخر." (٢)

"الأصنام التي في القلب بل المراد كسرها من القلب أولا قال الحسن بن علي المطوعي صنم كل إنسان هواه فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة وتأمل قول الخليل لقومه {ما هذه التماثيل التي أنتم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٥٩

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٧٩

لها عاكفون} كيف تجده مطابقا للتمائيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله قال الله تعالى {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا}

الحادي والأربعون أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه

الثاني والأربعون أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح قال أبو بكر الوراق إذا غلب الهوى أظلم القلب وإذا أظلم ضاق الصدر وإذا ضاق الصدر ساء الخلق وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها

الثالث والأربعون أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلا فأيهما ظهر توارى الآخر كما قال أبو علي الثقفي من غلبه هواه توارى عنه عقله فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه وقال علي بن سهل رحمه الله العقل والهوى يتنازعان **فالتوفيق** قرين العقل **والخذلان** قرين الهوى والنفس واقفة بينهما فأيهما غلب كانت النفس معه." (١)

"الرابع والأربعون أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى والباطل سلطان وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى والنفس واقفة بين الجيشين ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه فهي التي تعطي عدوها عدة من قبلها وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع **الخذلان** على القلب

الخامس والأربعون أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له فإذا اتبع هواه أعطي بيده لعدوه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليه وهذا هو بعينه هو جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٨٢

السادس والأربعون أن لكل عبد بداية ونهاية فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه بل يصير له ذلك في نهايته عذابا يعذب به في قلبه كما قال القائل

مآرب كانت في الشباب لأهلها ... عذابا فصارت في المشيب عذابا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس قال أبو علي الدقاق من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته." (١)

"مقدمة

...

حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

ابن قيم الجوزية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلا ويسرهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلا، وسهل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذللا خلقها لهم قبل أن يخلقهم وأسكنهم إياها قبل إن يوجدهم وحفها بالمكاره وأخرجهم إلى دار الامتحان ليبلوهم أيهم أحسن عملا وجعل ميعاد دخولها يوم القدوم عليه وضرب مدة الحياة الفانية دونه أجلا وأودعها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وجلاها لهم حتى عاينوها بعين البصيرة التي هي أنفذ من رؤية البصر وبشرهم بما أعد لهم فيها على لسان رسوله فهي خير البشر على لسان خير البشر وكمل لهم البشرى بكونهم خالدين فيها لا يبغون عنها حولا.

والحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا وباعث الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل إذ لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سدى ولو يغفلهم هملا بل خلقهم لأمر عظيم وهيأهم لخطب جسيم وعمر لهم دارين فهذه لمن أجاب الداعي ولم يبغ سوى ربه الكريم بدلا وهذه لمن لم يجب دعوته ولم يرفع بها رأسا ولم يعلق بها أملا.

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٨٣

والحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل وأفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته سبقت غضبه دعا عباده إلى دار السلام فعمهم بالدعوة حجة منه عليهم وعدلا وخص بالهداية **والتوفيق** من شاء نعمة ومنة وفضلا فهذا عدله وحكمته وهو العزيز الحكيم وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبده وابن عبده وابن." (١)

"الحاجة إلى معرفتها وعللها والجمع بين مختلفها ومسائل فقهية لا يكاد الطالب يظفر بها وفوائد حكمية تشتد الحاجة إلى العلم بها فهو كتاب ممتع لقارئه معجب للناظر فيه يصلح للمعاش والمعاد ويحتاج إلى مضمونه كل من وهب له شيء من الأولاد ومن الله أستمد السداد وأسأله **التوفيق** لسبل الرشاد انه كريم جواد وسميته

تحفة المودود بأحكام المولود

والله سبحانه المسؤول أن يجعله خالصا لوجهه الكريم انه حسبنا ونعم الوكيل وجعلته سبعة عشر بابا

١ - الباب الأول في استحباب طلب الأولاد

٢ - الباب الثاني في كراهة تسخط ما وهب الله له من البنات

٣ - الباب الثالث في استحباب بشارة من ولد له ولد

٤ - الباب الرابع في استحباب الأذان والإقامة في أذنه

٥ - الباب الخامس في استحباب تحنيكه

٦ - الباب السادس في العقيقة وأحكامها وذكر الاختلاف في وجوبها وحجة التابعين." (٢)

"يمشى، فإذا أحب فلله وإذا أبغض [أبغض] لله وإذا أعطى فلله وإذا منع فلله، قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه

فله فى كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجإ والافتقار فى كل نفس إليه، وهجرة إلى رسوله فى حركاته

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٣

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ابن القيم ص/٦

وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محاب الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد، وقال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل يقول: "وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك". وقال بعض العارفين: كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس.

ولما كانت السعادة دائرة- نفيا وإثباتا- مع ما جاء به كان جديرا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفا على معرفته وإرادته مقصورة على محابه، وهذا أعلى همة شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون، فلا جرم ضمنا هذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية، وسميناه طريق الهجرتين، وباب السعادتين، وابتدأناه بباب الفقر والعبودية؛ إذ هو باب السعادة [الأعظم] وطريقها الأقوم الذى لا سبيل إلى دخولها إلا منه، وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والإنس فى [الدنيا و] الآخرة ومراتبهم فى دار السعادة والشقاوة. فجاء الكتاب غريبا فى معناه، عجيبا فى مغزاه لكل قوم منه نصيب، ولكل وارد منه مشرب [وما كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المان به فإنما التوفيق بيده] وما كان فيه من [خطأ و] زلل فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

فيا أيها القارىء له والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه. ولك ثمرته، وعليه عائدته. فإن عدم منك حمدا وشكرا، فلا يعدم منك [مغفرة و] عذرا، وإن أبيت إلا الملام فبابه." (١)

"والوجد والعادة، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده، فتارة يعبده بذوقه ووجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان.

وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد، فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرف بها إلى عباده على ألسنة رسله ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٧

ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله تعالى ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل سيف فإن قطعته وإلا قطعك.

فإذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع. والله ولى **التوفيق**.

قاعدة نافعة: العبد من حين استقرت قدمه فى هذا الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هى عمره الذى كتب له فالعمر هو مدة سفر الإنسان فى هذه الدار إلى ربه تعالى، ثم قد جعلت الأيام والليالى مراحل لسفره: فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهى السفر. فالكيس الفطن هو الذى يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالما غانما، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتد أمله ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد فى قطعها بخير ما بحضرته، فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل وطوعت له نفسه الانقياد إلى التزود، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك فلا يزال هذا دأبه حتى يطوى مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح." (١)

"في هذه الآية: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا} الآية، قال "كل ناج".

وقال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو فضالة عن الأزهري عبد الله الخزاز، حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول: ألا إن سابقنا أهل جهادنا، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا ألا وإن ظالمنا أهل بدونا، وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة. قالوا: فهذه الآثار يشد بعضها بعضا، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا يعدل عنها.

والمقصود الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/١٨٥

المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه ومعاداة كتبه ورسله ما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلى دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له واحدة، فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه، وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله، فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله الإنابة إليه أصلا، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحا أبدا ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من **الخذلان**.

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمر الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور." (١)

"ماله، ومنها نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، ومنها ضعف بدنه، ومنها زوال المهابة والحلاوة التى لبسها بالطاعة فتبدل بها مهانة وحقارة، ومنها حصول البغضة والنفرة منه فى قلوب الناس، ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأعلاها، وهو الوقت الذى لا عوض منه، ولا يعود إليه أبدا، ومنها طمع عدوه فيه وظفره به، فإنه إذا رآه منقادا مستجيبا لما يأمره اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دن مولاه الحق، ومنها الطبع والرين على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن أذنب ذنبا آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه، فذلك هو الران، قال الله تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين: ١٤] ، ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها فى قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٠٣

والرغبة فى الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد. ومنها أن تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة، فإن القلب لا يزال مشتتا مضيعا حتى يرحل من الدنيا وينزل فى الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة، واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها إعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه، ومنها أن الذنب يستدعى ذنبا آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعى رابعا، وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته.

قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها، ومنها علمه بفوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات فى الدنيا ولذة ما فى الآخرة.

كما قال تعالى: {ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها} [الأحقاف: ٢٠] ، فالمؤمن لا يذهب طيباته فى الدنيا، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة.

وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته فى الدنيا، ومنها علمه بأن أعماله." (١)

"..

تقتضى رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدى الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هى دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا.

الثامن: أن يعلم أن فى عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره. قال [الله] تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون} [البقرة: ٢١٦] .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٧٣

وقال الله تعالى: {فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا} [النساء: ١٩] وفى مثل هذا القائل:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدما له وعونا له، وإن انقلب على وجه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر فى الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة فى حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة فى حقه صارت نعما عديدة.

وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب فى تلك الساعة. والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان **والخذلان**، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به." (١)

"رموهم بالزوكرة، والتلبيس والمحال.

وإذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول فى قالبة شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل [ألبسوه] لباس الحق وأخرجوه فى قالبه ليقبل منهم.

وجملة أمرهم أنهم فى المسلمين كالزغل فى النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم، وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلا الله أمرهم فى القرآن، وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم وكرر ذكرهم، لشدة المؤنة على الأمة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى وسلكوا بهم سبيل الردى: وعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور ومنوهم الويل والثبور.

فكم من قتيل، ولكن فى سبيل الشيطان وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان. وأسير لا يرجى له الخلاص

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٧٧

وفار من الله لا إليه، وهيهات ولات حين مناص. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار من [علقت] به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء **والخذلان**، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالا، ويمشى على عقبيه القهقرى إدبارا منه وهو يحسب ذلك إقبالا.

فهم والله قطاع الطريق، فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا. ففرارا منهم أيها الغنم فرارا.

ومن البلية أنهم الأعداء حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم، وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعدا للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات، فويل للمغترين. نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم: يا شياه الأنعام حى على الهلاك، حى على التباب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العذاب، لا الموارد العذاب.

وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة، وقالوا: ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس بيوم حطة. [فواعجبا] لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأنى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق،." (١)

"وبإثبات أفعاله وقيامها به تزول عنك جميع الإشكالات، وتصدق النصوص بعضها بعضا وتعلم مطابقتها للعقل الصريح، وإن أنكرت حقيقة الأفعال وقيامها به سبحانه اضطرب عليك هذا الباب أعظم اضطراب، وبقيت حائرا في **التوفيق** بين النصوص وبين أصول النفاة، وهيهات لك **بالتوفيق** بين النقيضين والجمع بين الضدين، يوضحه: إن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة لما فهمت من نزول الرب ومجيئه، وإتيانه وهبوطه ودنوه ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه وهو أن يفرغ مكانا ويشغل مكانا نفت حق◌يقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه ومحذور التعطيل، ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك، بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولا ليس كمثله نزول، فكيف تنفى حقيقته، فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلا.

فلو◌ كان الرب سبحانه مماثلا لخلقه لزم من نزوله خصائص نزولهم ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر،

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٤٠٨

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأنصاب والأصنام إلا تساقطوا في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وأتاهم رب العالمين، قال فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، وإنا سمعنا منادیا ينادي: ليلحق كل أمة بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا، فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه، قال فيأتيهم في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: " أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا» "، وفي لفظ فيقول: " «هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها، فيقولون الساق، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد رياء وسمعة، ويذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا» ".." (١)

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ابن الموصلي ص/٤٥٠